مصطفى محمود

طة الغليان





دار المعارف

نقطة الغليان

مصطفى محمود

نقطة الغليان

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

أغلى شيء

وقف فى شارع الحمراء فى بيروت يتلفت ويدس يده بين لحظة وأخرى فى جيبه حيث الألف ليرة.

بحار أعزب عاش عمره سواحا بين الموانى يضع قدمه أياما على البر ليعود فيتغرب شهورا تائها حتى ليصبح نقطة عائمة فى زرقة بلا حدود لا يربطه بعالم البشر إلا صوت الترانزستور الصغير المعلق على كتفه أو عجيج ركاب الباخرة السكارى آخر الليل.

ومثل كل البحارة قد ورث تلك العادة السيئة من أيام أجداده ماجلان وكولومبس أن يجمع كل ما كسبه طوال غربته ليلقى به بين أحضان أول فتاة يقابلها على رصيف الميناء.

وما أكثر ما ختم ليلته بمعركة بالأيدى مع صاحب البنسيون ثم عاد خالى الوفاض بعين وارمة إلى باخرته.

تلك حياة البحار.

وهذا أغلى ما يملك.

تلك اللذات الحادة المتجددة على أرصفة الموانى بين ضباب الخمور الرديئة وذلك العنف الممتع الذى ينفق فيه كل شىء أو يخسر فيه كل شىء.

وهل فى الحياة أغلى من ذلك.

ذلك الخطر الموشك.. واللذة الجامحة.. والانفعال الدائم.

وحينما رأى بعض الفقراء يسجدون ويصلون لله على شاطئ الإسكندرية ذات مرة لم يفهم لمن يسجد هؤلاء الناس ولمن يصلون.. وكيف يعطينا الله حياة لننفقها من أجل حياة أخرى.

وأين الله هذا الذى يعبدونه.

إنه لا يفهم هذا الكلام.

إن معبوده فى كأس نبيذ.. أو بين ذراعى امرأة.

وجنته فورية ولذائذه عاجلة وسعاداته يلمسها بيديه.

وجحيمه أن يحرم من هذه اللذات ويخرج مطرودا بلكمة على أنفه ويفوز بتلك اللذات غريمه أمام عينيه

يا له من نسيم منعش.

يا لها من ليلة دافئة.

وراح يغنى أغنية إيطالية ويدمدم فى استرخاء لذيذ وهو ينزل الدرجات إلى ستريو على بابه صور عارية.

وعلى البار وجدها.

ليس أجمل منها ولا فى الأساطير.

يا له من خصر ضامر.. وردف ممتلئ.. وشفتين مثل كرزتين تتدفقان دما وحيوية.

وتصور نفسه يطبق على هاتين الشفتين ويغيب فى هذا الردف.

يا لها من ليلة دافئة معطرة.

يا لها من امرأة تثيره حتى النخاع.

وراح يغنى أغنية بذيئة.

وغمز له البارمان بأنها أميرة إيطالية، ولكن لا يوجد شىء مستحيل لمن يملك الثمن.

وهمس فى أذنه وهو يصب كأسا.. إنه يمكن أن يدبر له كل شىء بألف ليرة.. العشاء والشراب والبنسيون وجنة من فواكه لبنان وأنهار من نبيذ بوردو ونبع فوار من الشمبانيا الفرنسية الفاخرة وتحفة نادرة من براندى نابليون المعتق مائة سنة فى أقبية الأديرة القديمة.

ومال عليه يروى قصة الذين فقدوا عقولهم بعد قبلة من هاتين الشفتين.

حسنا يا عزيزى البارمان.

لا مانع عندى أن أفقد عقلى أنا الآخر.. وأفقد ما فى جيبى أيضا الآن وفورا.

وألقى بالكأس جرعة واحدة فى جوفه.. وتأبط الفتاة وكأنه يتأبط العالم كله وخرج يغمغم بالأغنية البذيئة.

قالت له الفتاة على الدرج وهى تلقى بشعرها على كتفه:

- إيطالى؟

- لا يا أميرة أحلامي، بل غجرى من وار صوفيا.. من بلاد الكروم والموسيقى والرقص.. ولكنى أستطيع أن أكون إيطاليا من أجل عينيك.

واختلس قبلة من عنقها وهو يغمغم:

- إنى أستطيع أن أكون دائما كما تريد الحسان الفاتنات أمثالك..

وراح يغنى أغنية روسينو:

امنحينى قبلة أفتح بها الدنيا وأصل بها إلى القمر.

يا قيثارتى الجميلة.. دعينى أعزف على أوتار عودك الممشوق لحن حب.

واعتنقا على الباب.

هل حدث زلزال فجأة؟؟

لقد شعر بالأرض تميد تحت قدميه، وسقط جزء من السقف، وانطلقت من كل مكان أصوات الرشاشات والهاونات وقذائف المدفعية الثقيلة والصواريخ واشتعلت السماء بوهج أحمر..

ومرت لفحة من الهواء الساخن على خده كأنها سيف محمى.. ورأى شظية تقتلع رأس الفتاة أمامه وتترك حفرة ينبثق منها الدم..

ورأى نفسه يحتضن جثة..

وانبطح على الأرض وهو يرتجف.. وسمع صوت الترانزستور الصغير المعلق على كتفه يتحدث عن معارك مشتعلة بين الكتائب والقوات الوطنية فى عين الرمانة وفرن الشباك والأشرفية وتل الزعتر والحمرا ومنطقة الميناء.. ويحذر المواطنين من رصاص القناصة الذى ينطلق من رءوس العمارات ليقتل بلا تمييز.. وأوامر بحظر التجول.. وتحذيرات من انقطاع الماء والكهرباء..

وراح يزحف على بطنه ليصل إلى الميناء ورصاص القناصة يئز فوق رأسه، وتوقف ذهنه تماما.

وأصاب الشلل كل تفكيره..

وخيل له أنه يحلم وأن ما يجرى حوله كابوس أو خيالات فى رأس مخمور أو حالة صرع عامة.

وكان يجرى ثم يقفز ثم يهرول.. ثم يعود فينبطح أرضا.. ثم يعود فيزحف كسلحفاة.. ثم يعود فيمرق كسهم..

وحينما وصل إلى الميناء كان يلهث..

وفوجئ بباخرته أصابها لغم شطرها نصفين وأرسلها إلى القاع..

لم يبق له ملجأ سوى مكتب الشركة فى الأشرفية.

وألصق أذنه بالترانزستور فإذا به يسمع أن مكتب الشركة قد نسف وأن الأشرفية تحاصرها الحرائق..

وخرج عليه رجل بكلاشنكوف فى يده جرده من كل نقوده فى لحظة..

وشعر بنفسه فى العراء تماما وقد فقد كل شىء.

كل هذا حدث فى ثوان..

أصبح بعدها . لا أحد..

فقد العالم الذى ينتمى إليه..

وفقد نفسه وفقد عنوانه وفقد بطاقته وفقد ثروته.. وتلفت حوله فى ضياع كامل..

وكانت صرخات الجرحى والمحتضرين والوجوه التى جمدها الرعب تطل عليه من كل جانب.. وكان عدة مئات من الأهالى قد خرجوا إلى الميناء يلتمسون مهربا من الجحيم وكانت حركة البواخر قد توقفت تماما لتوقف الخدمة والتموين ولهرب العمال من المنطقة التى تحولت إلى ساحة قتال.

ولم تبق إلا بضع سفن شراعية صغيرة يقودها بعض المغامرين فى مقابل مبالغ كبيرة إلى اللاذقية واليونان والإسكندرية.

وتحركت فى صاحبنا غريزة البحار المغامر فتطوع ليقود بضع عشرات من هؤلاء الهاربين فى سفينة شراعية إلى الإسكندرية.

وهكذا عاد إلى البحر.. نقطة لا تكاد ترى فى الزرقة التى بلا حدود.. وحينما كانت السفينة تنساب ناعمة على صفحة الزرقة

اللازوردية كطائر اللقلق الأبيض كان يستعرض شريط الحوادث السريع المتلاحق: لا يكاد يصدق ما حدث.. وكان يحاول أن يفهم..

ولكن القصة لم تكن قد انتهت بعد..

والساعات القليلة التى مضت فى حوار ناعم مع نسيم البحر كانت مجرد هدنة حرب لأن الأمواج ما لبثت أن ارتفعت وزمجرت الرياح وتمزق الشراع وانكسرت الصوارى.. وخرجت السفينة عن خط سيرها المقرر.. والرحلة التى قدر لها أسبوع امتدت لأسبوعين. ونفد الطعام وفرغ الماء وبدأت المعركة مع الجوع والعطش.

وأصبح عاديا أن يسمع ذلك الذى يصرخ يريد أن يدفع كل ما يملك فى مقابل نقطة ماء.. وذلك الذى يعطى نصف عمره فى سبيل قطرة شراب يبل بها شفتيه.

كانت قطرة الماء تبدو ساعتها أغلى شىء.

وفى الليلة السوداء التى تحطمت فيها السفينة وغرقت لا يذكر شيئا سوى أنه كان يسبح وحده فى بحر بلون القار الأسود ولا أحد غيره على قيد الحياة ولا صوت ولا بصيص ضوء.

وحينما كانت قواه تخور سمع شفتيه تسألان الرحمة..

من كان يسأل ولا أحد هناك؟!!!

وسمع قلبه يستغيث.. ويستنجد.. كطفل ملقى فى العراء هجرته أمه..

بمن كان يستغيث ولا أحد هناك سوى أطباق فوق أطبـاق مـن الظلمة..

بمن كانت يستنجد...؟!!!

لقد كانت شفتاه صادقتين..

وكان قلبه صادق الطلب..

ولكن لا أحد سواه..

أو لعله أخطأ الفهم..

ولعل قلبه أصاب حيث أخطأ بصره فرأى مـا لا تـرى العيـن.. ساعتها كانت الرحمة أغلى شيء..

ومن عنده الرحمة كان أغلى الكل..

ذلك الذى أدرك القلب وجوده وخاطبه مخاطبة الحاضر المشهود.. فقال.. يارب.. رحمتك..

واستجاب الرحيم فانتشلته يد قوية وحملته إلى قارب إنقاذ..

وفى سرير بمستشفى الإسكندرية فتح الرجل عينيه ليستأنف الحياة من جديد وقد أصبح رجلا آخر..

رجلا يركع ويسجد ويدعو مع الداعين.. ويصلى مع المصلين..

تلك هى قصة البحار عمرو إسماعيلوفتش الذى عـاش حيـاته يجرى وراء أغلى شيء.. والذى عرف أخيرا ما هو أغلى شيء.

العزيز الذى لا ينال

أغسطس القاتل.

ودرجة الحرارة أربعون درجة، والزنزانة متر فى متــر، والســجين يدور حول نفسه منذ ساعات ثم ينهار فى ركن ثــم يتجمــد كتمثــال يحملق أمامه بأعين ثابتة زجاجية تخترق الجدران وتخترق الزمن.

إنه فى انتظار من يفتح الباب ويقوده لتنفيذ حكم الإعدام..

ربما يحدث هذا اليوم وربما يحدث غدا.. وربما يحدث الآن.

وشريط حياته يمر أمام عينيه سريعا.

إنه صيدلى ورجل أعمال ناجح.. له صــيدلية فى أكبــر ميــادين الكويت يكسب منها أكثر من ثمانية آلاف جنيه شهريا.. ولا يحتــاج منه هذا المكسب الضخم أكثر من العمل بضع ساعات هو وزوجته فى الصيدلية كل يوم.

وقد اشتغل فى بيع وشراء الأراضى فارتفع رصيده فى سنوات مــن عدة آلاف إلى عدة ملايين من الدنانير.

ثم اشتغل فى بناء وبيع الفيــلات والعمــارات.. ثــم فى الأدوات الكهربائية والأثاث ثم فى تجارة العربات القديمة .. فتضاعفت ثــروته إلى أرقام فلكية.

وتصور أنه لم يعد ينقصه هو وزوجته شىء.. فكل ما يرغبان فيه يحصلان عليه بإشارة من طرف البنان.. وكل ما يحلمان به يحققــانه فى أقل من إغماضة عين.

هكذا كان يتصور حتى شهور قليلة حينما حدثت الحادثة الرهيبة.

وقد بدأت الحادثة بملاحظة بسيطة هــى تنــاقص تــدريجى فى أمبولات المورفين بالصيدلية وبإعادة الحسابات اكتشــف أن هنــاك تناقصا مماثلا فى أمبولات الكودبين واللومينال والكاربريتال وفى عــدد من المخدرات الممنوع تداولها بدون روشتات ولم يــكن أحــد يملك مفتاح دولاب المخدرات سواه هو وزوجته.

ولا يد غريبة تعمل معهما فى الصيدلية..

ولم يكن الشك ليخرج عن أحد اثنين.. إما هو.. وإما هى..

وكانت حالتها النفسية فى السنوات الأخيرة تشير إليهــا بــإصبع الاتهام.. نوبات الخدر والسرحان والذهول والرغبة فى الــوحدة، ثــم نوبات التوتر والعصبية.. ثم نوبات الرغبة فى النوم.. ثــم الإمســاك المزمن وفقدان الشهية والكآبة والسوداوية.

إنها هى إذن..

ولكن ما السر؟؟

وكتم الأمر فى نفسه ولم يشأ أن يسألها.. وراح يتجسس..

واكتشف أنها تبعث بخطابات منتظمة إلى القاهرة بمعدل خطاب كل ثلاثة أو أربعة أيام وراح يفتش فى أدراجها، وعثر على أحد هذه الخطابات.. وكانت ما تزال تكتب فى صفحته الأخيرة.. لم تنته منه بعد.

ووقف شعر رأسه وتصبب منه العرق باردا وهو يقرأ..

كان خطاب حب ملتهب به سطور عن علاقة مكشوفة وتفاصيل عن اللذة المحمومة التى غمرتها من الرأس إلى القدم حينما ذاقت أول قبلة.. وكاد قلبه يتوقف وهو يقرأ كلماتها:

«صدقنى لم أكن أشعر بأى شعور بين ذراعى زوجى إلا حينما أتخيل أنك هو» وكانت السطور تعود فتحلق إلى نبرة غامضة شعرية حينما تقول: «ما أجمل اللحظة التى لا مس فيها سرك سرى. وانطوى نورك فى نورى، وشعرت أنى ذبت تماما وعدت كما بدأت.. مجرد لا شيء»..

وأعاد الخطاب إلى الدرج ويده ترتجف كأنما أصابه مس من جنون..

ولكنه كتم الأمر ولم يشأ أن يفاتحها وطار إلى القاهرة إلى عنوان الرجل.. وكانت المفاجأة الثانية .. الصاعقة.. فقد اكتشف أن الرجل ميت، وأنه مات من خمس عشرة سنة فى حادث تصادم فى طريق مصر الإسكندرية الصحراوى.. أى أنه مات قبل زواجه منها..

هى إذن قصة حب مع رجل ميت. مع شبح.. مع ماض سحيق..

ولكن ما ذلك التجسيد الغريب المثير للمشاعر.. وكأنها تخاطب أعضاء تلمسها.. وتباشر حالات حية.. وتعيش فى حاضر مهيمن يملأ عليها أقطار أحاسيسها.. فتتكلم فى صراحة بذيئة عن ذلك الإحساس، اللذيذ بالبلل.. ثم يعود فيحلق بها الخيال المحموم إلى تلك النبرات الشعرية الغامضة.. عن السر الذى لا مس السر. والنور الذى انطوى فى النور.. وعن الذوبان حتى التلاشى والعدم.

أيمكن أن يفعل هذا رجل مات وتحلل وأصبح رمة عفنة وترابا منذ خمس عشرة سنة؟

أم أنه أمام حالة جنون كامل؟

تلك المرأة الضامرة الهزيلة ذات الجمال الذابل والنظرات الناعسة الأنثوية.. ذلك الكيان الناعم الحريرى فى الأربعين.. الذى يودع جماله..

أتكون قد أصابها مس من صرع وقد رأت جمالها يذوى؟؟

وألقى فى وجهها بكل شىء..

ونظرت اليه نظرات مخدورة واتسعت عيناها الناعسة الأنثوية وكأنما تيقظت من حلم، وأشاحت بيديها كأنما تزيح الأغطية أوتنفض غبار تابوت..

قال فى صوت متهدج:

- لم فعلت هذا؟؟

فأجابت فى نبرة ساهمة لكن ثابتة:

- أنا أعيش حياة لا تطاق..

- أنت تملكين كل شىء..

- نحن لا نحب ما نملك..

- كل ما تحلمين به تجدينه..

- نحن لا نحلم بما نجد، بل نحلم بالعزيز الذى لا ينال..

- ماذا ينقصك؟؟

- الحب..

- ولكنى تصورت أنك تحبين المال حتى الموت.

- وهل يحب الأسمنت والخشب والحديد؟؟

- حياتنا كانت دائما حافلة بالنجاح.

- بل كانت دائما صدئة خالية من لمسة الشعر وكلمة الحنان..

- ما حكاية هذا الرجل.. هل كنت عشيقته قبل زواجنا؟؟ صارحينى بالله..

فابتسمت ابتسامة باهتة.. وقالت فى هدوء:

- بل كان مجرد لقاء مصادفة فى إحدى المكتبات العامة..

تبادلنا فيه بضع كلمات.. لم يلمس يدى ولم ألمس يده.. ولم أره بعد ذلك.. وإنما كنت أقرأ له فى الصحف.. كاتبا مشهورا.. ثـم مـات فى حادث تصادم.. وقرأت نعيه كما قرأته أنت وكما قرأه كل الناس.. ثم قابلتك وتزوجنا.. وهذا كل شىء..

- أنت امرأة مجنونة..

- بل امرأة عاقلة تريد أن تعيش حياة حقيقية..

- أليست حياتنا حقيقية؟؟

- أنها مجرد كمبيالات وإيصالات وشيكات وأوراق نقدية تتراكم بدون معنى وخارج إطار هذه الكمبيالات والشيكات.. لاوجود لشىء.. لا إيمان بشىء.. لا حب لشىء.. إن حياتك هى الجنون واللامعقول ذاته وليست حياتى.

- انظرى إلى ما فعلت بنفسك.. مـورفين وكودييـن وهيـروين وكوكايين.. أهذه الحياة.

- أفعل هذا لأتحمل الحرمان والجفاف الذى أعيشه معك.

- ولماذا لم تطلبى الطلاق؟

- انتهى العمر وهذا قدرى ولم يعد فى الإمكان البدء من جديد.. وحياتنا هى خطؤنا نحن الاثنين وليست خطأك وحدك.. وربمـا كان ذنبى أكبر من ذنبك.

- ذنبك أكبر؟؟!! كيف؟

- لأنى كنت أعلم جريمتى وأستمر فيها.. أما أنت فلم تكن تعلم ماذا تفعل بنفسك.. كنت تحب المال حتى الموت بالفعل.. وكنت صادقا مع نفسك فى هذا الدأب اللامعقول.. أما أنا فظل فى داخلى شعور واع رافض لكل شىء.. لكنى استمررت وحاولت أن أعالج الخطأ بخطأ ثم أعالج الخطأين بخطأ ثالث.. حتى انتهيت إلى تلوث كامل.

- ماذا تعنين بتلوث كامل؟

فجمعت كل شجاعتها وألقت بالمفاجأة الثالثة الصاعقة.

- لن أكتم عنك شيئا.. سوف أضع عن قلبى كل أثقاله وأستريح.. سوف أقول لك كل الحقيقة.

وشعر بأنها سوف تلقى بكارثة فقال مشفقا على نفسه وعليها:

- سعاد.. أرجوك.. لا داعى.

ولكنها استمرت بصوت معدنى بارد ميت كأنها مصفحة تمر فوق أضلاعه:

- لقد خنتك مع كل رجل دخل هذا البيت.. وتصورت فى كل مرة أنى سوف أحب هذا الرجل أو ذاك حتى الموت ثم اكتشفت فى كل مرة أنى أكثر غثيانا ومللا.. وأنى أمام شىء مضجر لا يطاق.. ولم يبق لى فى النهاية إلا ذلك الرجل الشبح الحلم العزيز الذى لا ينال ذلك الجمال الشفيف من وراء الغيب.

ثم انهارت فجأة تبكى وكأنها تتلاشى فى دموعها وتكوم هو مهزوما فى كرسيه وهو يغمغم:

- أنت مجنونة.. مجنونة.

* * *

ولا يعلم كيف مضت به الأيام بعد ذلك.

ولا يستطيع أن يصف هذه الظلمة التى مازجته حتى قضت عليه.

وحينما دبر بعد ذلك قتلها بالسم. لم يكن سبب هذا القتل أنها خانته وإنما كان السبب الحقيقى أنها قتلته.. وأنها مزقت الستر عن حياته فأصابته بعدواها ونقلت إليه شعورها المرهف بعدم الجدوى.. فأصبح يعيش فى خواء تام وقد سلبته الإحساس بالهدف وحرمته لذة الجمع والنجاح.. فانكشف له الجنون والآلية والعبث فى هذا الجمع اللامعقول - وهذا الجرى وراء اللاشىء.. فأدرك أنه لم يعش وأنه لم يكن يعيش فى أى يوم.

نعم.. لقد دبر لقتلها بإصرار وتعمد وتخطيط وليس بانفعال ولا بغضب الزوج الذى أهين فى شرفه.. وإنما بإحساس قتيل يثأر من قاتله.. وبإحساس رجل فقد كل شىء.. فقد نفسه وروحه وجوهره ولذته وحافز كفاحه.

وحينما كانت تموت كانت عيناها تبتسمان.

وكانت تبدو وكأنما تخففت من كل أثقالها.

وقالت له فى نبرة شكر وهى تقبل يده:

ـ هذا هو العمل الوحيد المعقول الذى صنعته فى حياتك.

وسلم نفسه للنيابة فى ذلك اليوم وكتب اعترافا كاملا بخط يده.

وكان تعليق القاضى الذى أصدر الحكم وهو رجل صوفى إلى زميله:

ـ إن كل الذين عبروا من هنا إلى المشانق قالوا إنهـم أحبـوا حتى الموت، البعض أحب الخشب والحديد، والبعض أحب السلطة، والبعض أحب امرأة، والبعض أحب نفسه.. ولا شىء من هذا الحب كان يروى عطشا.. كلهم كانوا كمن يشرب من ماء مالح كلمـا ازداد شربا ازداد ظمئا..

ولهذا حاولت صاحبتنا أن تسعى بحبها إلى العزيز الذى لا ينـال فأحبت الميت فكانت أكثر سقوطا وصرفت وجهها عن الوجود لتسقط فى العدم.. ولو أنها أحبت الحى الذى لا يموت ولو أنها عرفت جمال وجه الله المستور من وراء الغيب لأدركت طريقها ولتغيرت القصـة... ولكن.. «ولكن» هذه هى جريمتنا جميعا.

الرجل الذى عرف ربه

كان الرجل مريضا بمرض عضال لا يعرف له علاجا فكلما جلس فى مكان قال له الناس - رائحتك كريهة.. ألا تستحم.

وتردد على الأطباء وفحص الأنف والجيوب والحلق والأسنان واللثة والكبد والأمعاء.. وكانت النتيجة.. لا مرض فى أى مكان بالجسد ولا سبب عضويا مفهوم لهذه الرائحة.

وكان يتردد على الحمام عدة مرات فى اليوم ويغتسل بأغلى العطور فلا تجدى هذه الوسائل شيئا.. ولا يكاد يخرج إلى الناس حتى يتحول إلى قبر منتن يهرب منه الصديق قبل العدو.

وذهب يبكى لرجل صالح.. وحكى له حكايته فقال الرجل الصالح.. هذه ليست رائحة جسدك.. ولكن رائحة أعمالك.

فقال الرجل مندهشا: وهل للأعمال رائحة؟

فقال الرجل: تلك بعض الأسرار التى يكشف عنها الله الحجاب.. ويبدو أن الله أحبك وأراد لك الخير وأحب أن يمهد لك الطريق إلى توبة.

فقال الرجل معترفا :

- أنا بالحق أعيش على السرقة والاختلاس والربا وأزنى وأسكر وأقارف المنكرات.

قال الرجل الصالح : وقد رأيت فهذه رائحة أعمالك.

قال الرجل : وما الحل؟

قال الصالح : الحل أصبح واضحا، أن تصلح أعمالك وتتوب إلى الله توبة نصوحا.

وتاب الرجل توبة نصوحا وأقلع عن جميع المنكرات ولكن رائحته ظلت كما هى.. فعاد يبكى إلى الرجل الصالح.. فقال له الرجل الصالح - لقد أصلحت أعمالك الحاضرة، أما أعمالك الماضية فقد نفذ فيها السهم.. ولا خلاص منها إلا بمغفرة.

قال الرجل وكيف السبيل إلى مغفرة؟

قال الصالح إن الحسنات يذهبن السيئات فتصدق بمالك.. والحج المبرور يخرج منه صاحبه مغفور الذنوب كيوم ولدته أمه فاقصد الحج.. واسجد لله.. وابك على نفسك بعدد أيام عمرك..

وتصدق الرجل بماله وخرج إلى الحج.. وسجد فى كل ركن بالكعبة وبكى بعدد أيام عمره.. ولكنه ظل على حاله تعافه الكلاب وتهرب منه الخنازير إلى حظائرها.. فآوى إلى مقبرة قديمة وسكنها وصمم ألا يبرحها حتى يجعل الله له فرجا من كربه.

وما كاد يغمض عينيه لينام حتى رأى فى الحلم الجثث التى كانت فى المقبرة تجمع أكفانها وترحل هاربة.. وفتح عينيه فرأى جميع الجثث قد رحلت بالفعل وجميع اللحود فارغة.. فخر ساجدا يبكى حتى طلع الفجر فمر به الرجل الصالح.. وقال له:

هذا بكاء لا ينفع فإن قلبك يمتلئ بالاعتراض.. وأنت لا تبكى اتهاما لنفسك بل تتهم العدالة الإلهية فى حقك.

قال الرجل: لا أفهم!!

قال الصالح: هل ترى أن الله كان عادلا فى حقك؟.

قال الرجل: لا أدرى.

قال الصالح: بالضبط.. إن عدل الله أصبح محل شبهة عندك.. وبهذا قلبت الأمور فجعلت الله مذنبا وتصورت نفسك بريئا..وبهذا كنت طول الوقت تضيف إلى ذنوبك ذنوبا جديدة فى الوقت الذى ظننت فيه أنك تحسن العمل.

قال الرجل: ولكنى أشعر أنى مظلوم.

قال الصالح: لو اطلعت على الغيب لوجدت نفسك تستحق عذابا أكبر ولعرفت أن الله الذى ابتلاك لطف بك.. ولكنك اعترضت على ما تجهل واتهمت ربك بالظلم..فاستغفر وحاول أن تطهر قلبك وأسلم وجهك.. فإنك إلى الآن ورغم حجك وصومك وصلاتك وتوبتك لم تسلم بعد.

قال الرجل: كيف.. ألست مسلما؟!

قال الصالح : نعم لست مسلما، فالإسلام هو إسلام الوجه قبل كل شيء.. وذلك لا يكون إلا بالقبول وعدم الاعتراض والاسترسال مع الله في مقاديره وبأن يستوى عندك المنع والعطاء، وأن تـرى حـكمة الله ورحمته في منعه كما تراه في عطائه، فلا تغتر بنعمة ولا تعترض على حرمان فعدل الله لا يتخلف، وهو عادل دائمـا في جميـع الأحـوال ورحمته سابغة في كل ما يجريه من مقادير فقل لا إلـه إلا الله ثـم استقم.. ذلك هو الإسلام.

قال الرجل : إنى أقول لا إله إلا الله كل لحظة.

قال الصالح : تقولها بلسانك ولا تقولها بقلبك ولا تقولها بمـوقفك وعملك.

قال الرجل : كيف؟

قال الصالح : إنك تناقش الله الحساب كل يوم وكأنك إله مثلـه.. تقول له استغفرت فلم تغفر لى..سجدت فلم ترحمنى.. بـكيت فلـم تشفق على.. صليت وصمت وحججت إليك فمـا سـامحتنى.. أيـن عدلك؟.

وربت الرجل الصالح على كتفيه قائلا – يـا أخـى ليس هـذا توحيدا.

التوحيد أن تكون ارادة الله هى عين ما تهوى وفعله عين ما تحب وكأن يدك أصبحت يده ولسانك لسانه.. التوحيد هو أن تقول نعـم. وتصدع بالأمر مثل ملائكة العزائم دون أن تسأل لماذا.. لأنه لا إلـه

إلا الله.. لا عادل ولا رحمن ولا رحيم ولا حق سواه.. هو الوجود وأنت العدم.. فكيف يناقش العدم الوجود.. إنما يتلقى العدم المدد من الوجود ساجدا حامدا شاكرًا.. لأنه لا وجود غيره.. هو الإيجاب وما عداه سلب.. هو الحق وما عداه باطل.

فبكى الرجل وقد أدرك أنه ما عاش قطّ وما عبد ربه قط.

قال الصالح: الآن عرفت فالزم.. وقل لا إله إلا الله.. ثم استقم.. قلها مرة واحدة من أحشائك.

فقال الرجل: لا إله إلا الله.

فتضوع الياسمين وانتشر العطر وملأ العبير الأجواء وكأن روضة من الجنة تنزلت على الأرض.

وتلفت الناس.. وقالوا.. من هناك.. من ذلك الملاك الذى تلفه سحابة عطر.

قال الرجل الصالح: بل هو رجل عرف ربه.

تحولات الليل والنهار

كان هذا هو اليوم الاخير فى «التأبيدة» التى قضى فيها السجين عشرين سنة من عمره وراء القضبان وهو يعد الأيام يوما يوما انتظارا لتلك اللحظة التى يرى فيها النور.

وقد دخل إبراهيم السجن فى جريمة قتل..

ويذكر إبراهيم ما حدث دقيقة بدقيقة وكأنما هناك شريط سينمائى ناطق مجسم بالألوان يدور فى رأسه ولا يكف عن الدوران.

يذكر ما حدث حينما عاد إلى بيته فى تلك الليلة من يناير مبكرا على غير عادة.. ووقف يقرع الباب..

لم تأت زوجته مهرولة كعادتها لتفتح وإنما سمع حركة مضطربة خلف الباب وسمع أقداما تجرى ولم يفتح أحد.

وعاد يقرع الباب وقد تحرك شك قاتل فى صدره.. وعادت الأقدام تجرى فى اضطراب، وسمع لغطا.. ثم أصوات أشياء تقع على الأرض وزجاجا ينكسر ونوافذ تصطفق..

وحمل على الباب بكل قوته ودفعه دفعة هائلة فانفتح وقفز إلى الداخل ليرى زوجته واقفة مذعورة بفستان على اللحم وشبح رجل يهرب من النافذة.

وترك كل شيء وانطلق يجرى وراء الهارب.

ولم يستطع أن يلحق به فقد اندس فى زحام المولد وانقطع أثره. ولكنه عرفه وعرف من هو..

وفى اليوم التالى حمل سكينا تحت جلبابه وذهب إلى محل المكوجى. وقتل مسعد المكوجى بضربة واحدة من سكينه قطع بها شرايين رقبته، وحينما حاول صاحب المحل أن يدافع عنه قتله هو الآخر.. ثم تكاثر عليه الناس وانتزعوا السكين من يده وسلموه للبوليس..

ومن ذلك التاريخ وهو ملقى بالسجن.

وحكم عليه القاضى بالمؤبد.

ومضت عليه عشرون سنة كأنها عشرون قرنا وهو يعض على نواجذه من الغيظ لأنه دخل الزنزانة قبل أن يقتل زينب.

كان فى عزمه أن يقتل الاثنين، وقد بدأ بالرجل وفى نيته أن ينثنى مسرعا ليقتل المرأة ويستريح.. ولكن الحوادث التى تلاحقت وقتله لرجلين ثم تكاثر الناس عليه ثم اعتقاله، غير مجرى الأمور وأعطى المرأة عشرين سنة من العمر وحكم عليه بعشرين سنة من الكظم والغيظ قضاها لا يفكر فى شيء إلا لحظة يحز رقبتها بسكينه.

زينب التى عرف فى حضنها اللذة والسكن والراحة .. والتى أعطاها رزقه وعرقه وشبابه.. خانته.

كم بات يحلم بأن يقطع لسانها الذى كان يقول له .. بحبك يا إبراهيم.. وكم راح يهذى بأنه يغمس السكين فى قلبها الذى كان يخفق فى حضن قلبه.

وكان يراها دائما فى خياله، جميلة طرية ريانة، كأنها ثمرة يانعة فيها رائحة الحقل.

وكان يراها دائما فى حضن الرجل الآخر تقبله وتوشوشه كما كانت تقبله وتوشوشه.. وكان يسمع غنج صوتها فى ظلام زنزانته فيفور الدم ويغلى فى شرايينه.

وكان يسمع النبض يدق فى دماغه.. ولكنه عاش يكظم ويكتم فى انتظار اللحظة التى يخرج فيها إلى النور.

وحينما جاء السجان وفتح له الباب وقال له.. مبروك يا إبراهيم.. إفراج.. خرج كالريح .. خرج كما يخرج الغضب من فم الغضبان، وكان أول شىء عمله أن توجه إلى بيته والسكين تحت جلبابه.

وكان باب البيت مفتوحا...

وأسرع داخلا.

وكانت المرأة راقدة مريضة تسعل.

وتسمر فى مكانه حينما أطل فى وجهها.. وشعر بدمائه تبرد.. ثم

تتثلج.. وتجمدت مشاعره.. وأحس بجنونه يتبخر من رأسه.. ثم أحس برأسه ذاته يتبخر.

لقد رأى امرأة أخرى تماما غير تلك التى كان يحلم بقتلها فى زنزانته.. رأى عجوزا عجفاء سقطت أسنانها وانحنى هيكلها وتجعدت بشرتها.. ذهبت النضارة وخبا الجمال.. وجف العود الريان.. وتيبست الأطراف.. لم يبق شيء يقتله أو يقتل الناس أنفسهم من أجله.

وخمدت الغيرة فى قلب الرجل فجأة كأنما هبت عليها ريح جليدية.. وحل محلها مزيج غريب من الذهول والدهشة والإشفاق.

ولم يدر الرجل ماذا قال لامرأته. فقد راح يقول أى كلام ثم ما لبث أن تسلل خارجا وقد أصبح رجلا آخر غير الذى دخل السجن من عشرين عاما..

وكما تغير الرجل فجأة فقد تغيرت الدنيا أيضا فى عينيه فجأة وراح يكتشفها كأنه مولود يحبو ويتعرف على الدنيا لأول مرة.

حينما جلس يشرب الشاى فى القهوة علم بأن زملاءه السباكين قد هاجروا للعمل فى الخليج والسعودية والكويت.

وقال له القهوجى: إن السباك يعمل الآن بمرتب شهرى خمسة آلاف ريال فى السعودية أى ألف جنيه شهريا .. أما صغار العمال الذين آثروا البقاء فى مصر فإن الواحد منهم يكسب من السباكة مائة وخمسين جنيها فى الشهر.. وإن السباك مطلوب فى كل مكان وإن الذى يعرف كيف يصلح حنفية يسمى نفسه باشمهندس ويركب عربة ملاكى. وسرح إبراهيم بعينين ذاهلتين.

كان كل شيء يتغير ويتبدل بسرعة هائلة بينما هو رابض كالتمثال في زنزانته يمضغ حقدا أسود لا يريد أن يزول..

المرأة أصبحت غير المرأة.

والرجل غير الرجل.

والصنعة غير الصنعة.

والبلد غير البلد.

بينما هو تجمد كتمثال من حجر صوان يجتر عذابا لا ينتهي.

يالها من لحظة تافهة تلك التي توقف عندها وكبل نفسه بـأغلالها عشرين عاما.. كيف يحدث أن يقتل الناس بعضهم بعضا لأمور بمثل تلك التفاهة؟

لقد قتل رجلين من أجل زينب.. ومن أجل حبه لزينب.. ومن أجل شهوته لزينب.. ومن أجل غيرته على زينب.. فأين زينب الآن؟

وأين حبه لزينب..؟

وأين شهوته لزينب..؟

وأين غيرته على زينب..؟

لقد تبخرت زينب وكأنما كانت وهما.. وخلفت شيئا مثـل رمـاد المدفأة وتبخر حبه لزينب كما تتبخر الأحلام.

وتبخرت شهوته كما يتبخر مستنقع في يوم صيف.

وخمدت غيرته كما تخمد شعلة أكلت نفسها.

يا لها من أمور تافهة يتقاتل من أجلها الناس.

كم تبدو تلك الأحداث الهـائلة واللحـظات الـرهيبة المفعمـة بالغضب.. كم تبدو له الآن على البعد أحداثا صغيرة.

أما كان أولى به أن يطلقها وأن يذهب كل منهما لحاله وأن يجرب كل منهما حظه من جديد دون أن تراق كل تلك الدماء.

ولو أنه بدأ حياة جديدة فى تلك الظروف من الرخاء لتزوج من هى أجمل من زينب وأرق من زينب وأوفى من زينب ولكانت عنده عـربة.. ولربما هاجر مع الذين هاجروا إلى السـعودية والخليـج واقتنـوا الثروات. وذاق لذة الترحال والتنقل والأسفار بدلا من ضياع العمر فى الزنزانة وذل المؤبد.

يا له من أمر تافه ذلك الذى عشت أطحنه تحت أضراسى عشريـن عاما..

ودلق إبراهيم بقية فنجان القهوة فى جوفه وقام ليتوضأ على صوت الأذان وقد شعر أنه أصبح خفيفا مجنحا يكاد يطير مع كل خطوة.

ومضى إلى المسجد ليصلى.. وكأنه رجل آخر غير ذلك الذى عرفه وعاشره ستين عاما.

وعجب من أمر نفسه.

وتساءل وهو يخطو إلى المسجد:

كيف يحدث فى لحظة أن يولد العقل من الجنون كما يولد النهـــار من الليل؟ وهل يحتاج مثل ذلك الميلاد أن يدفع الإنسان ذلك الثمن الباهظ من زهرة العمر؟

الزهور البلاستيك

باقة من الجميلات فى حلقة أكواب البيرة فى ركن بنادى الجزيرة.

أمسية صيف والصدور عارية والثياب من الشيفون الشفاف الهفهاف.

الجلسات مسترخية وأنوار الأباجورات الحمراء تنعكس كلهب خافت على الشعور الذهبية المرسلة.

وأنت لا تعرف هل تلك الشعور ذهبية بالفعل أم هى مصبوغة، أم هى باروكات.. وكذلك الأهداب الطويلة كالسهام القواطع هى الأخرى أنواع من الملصقات.. كذلك الورد على الخدود.. والوميض المتلألئ على الجباه.. والطراوة المنعشة فى الأيدى والأنامل.. هى مستحدثات جديدة من صنوف الماكياج.

من الصعب أن تعرف حقيقة واحدة إلا اذا وضعتها تحت الدش.

وأصعب من ذلك أن تعرف ماذا تحت تلك الأقنعة التنكرية المرسومة بعناية على الوجوه.

وأصعب من ذلك أن تعرف ماذا تحت القشرة.. وماذا فى القلوب.

فلنستمع إلى الحديث الهامس والثرثرة الضاحكة حول كؤوس البيرة، لعل الألسن تبوح ببعض تلك الحقائق.

ولايهم من هى من.

ولا من تجيب على من.

ولامن تضحك ومن تسمع.

ودعنا من الفضول التافه حول الأشخاص.

ودعنا من تلك الرغبة المراهقة فى أن نخطب ود هذه أو تلك.

ولنستمع فى براءة الذى يريد أن يخطب ود الحقيقة.

هذان الرأسان يميلان على بعضهما البعض وأحدهما يومئ بعينه إلى شخص بعيد:

- أتعرفينه؟

- أوه.. إنه زوج ميمى.. إنه فظيع.. تصورى إنه يمنعها من السهر فى الخارج ويمنعها من الرقص ويحرم عليها لبس البكينى فى حمام النادى.

- أوه.. فظيع.. وأين تلبس البكينى؟.. فى المطبخ؟

- مسكينة إنه يمنعها من نزول الماء بالمرة.

- ياحرام.. وماذا تفعل الواحدة فى أغسطس؟

- تأكل جلاس..

- ومع ذلك فهو لا يحرم نفسه من مغازلة بنات الناس بالتليفون فى نص الليل.

- أوه.. هل فعلها معك أنت أيضا؟

- إنه لم يدع واحدة إلا غازلها..

- هل اشتكى لك من برود زوجته فى الفراش؟

- هذه أول الاسطوانة..

- كل الرجال على هذا المنوال.. سفلة لا أمان لهم.. يحللون لأنفسهم كل شىء ويحرمون على الزوجة أن تتنفس..

- لكن بينى وبينك ميمى تتنفس على راحتها أوى رغم كل هذه الحراسة المشددة.

- قصدك الممثل المسبسب إياه.. ولا صاحبنا بتاع الكورة.. ولا شيفروليه ٧٧، ولا الثلاثة؟؟.

- قصدى الأربعة..

- مين الرابع؟؟.

- النادى الدولى..

- مش معقول.. إنها لا تترك فرصة.. طبيعى إنه لا يبقى للزوج المسكين بعد هذا النشاط إلا البرود فى الفراش.

ليس مسكينا يا عزيزتى.. إنه يجد دائما الحرارة التى يفتقدها فى أى فراش آخر هنا.. أو هناك.

- لا أحد منهما يضيع وقته.. علام تضحكين؟

- على الأوامر المشددة بمنع لبس البكينى فى الحمام..

- عندك حق فى حين هى تخلع ملابسها كلها فى النادى الدولى..

- لا يستطيع رجل أن يحكم امرأة.. ومهما أحكم غلق الابواب.. ومهما تربس النوافذ سوف تجد المرأة فرصة.. ولو أثناء مشوار لخلع ضرس.

- الطيب أحسن صدقينى.. كل هذه العنجهية الزوجية رجعية وتخلف من أيام الحريم.

ونطقت كلمة «رجعية» بحرف الغين «غجعية»

فمالت عليها صاحبتها لتقول فى أذنها.

- أنا ملاحظة أنك تقدمية أوى..

- أوى.. أوى يا حبيبتى.. على أقصى اليسار.. شيوعية زوجية.. كل شىء مباح للرفاق.

- ما تاخدونا معاكم فى الحزب..

فضحكت صاحبتنا وتمايلت وهى ترشف كأسها هامسة:

- ناخد مين يا ثريا هانم.. ده انت حزب لوحده.

ودخلت امرأة فى الخمسين تلبس «بنطلون محزق وباروكة» وقـام الكل.. وطرقعت قبلات الشوق وتجاويت التحيات..

- أهلا تانت ألفت..

- واحشانا موت يا تانت ألفت..

- فين كل الغيبة دى يا تانت ألفت؟؟

- كنت باعمل ديكور جديد للشقة.. كلفتها ١٥ ألف جنيه.. رميت السجاجيد الشنوا وفرشت موكيت ألمانى مسـتورد جنـان وغـطيت الجدران بورق دهب فلورسنت مذهل..

- وما الداعى لكل هذه الكلفة؟؟

- تغيير يا حبيبتى.. تغيير.. لابد من ثورة تغيير من حين لآخر مادمنا مش قادرين نغير الراجل نغير السرير..

- لا.. نظرية فعلا..

- تانت ألفت دايما عندها نظريات هايلة.

- برافو ياتانت ألفت أرجوكى خدينى معاكى فى مدرسة التغيير دى..

- لا يامدام ثريا عيب.. دنا تلميذتك.. ده انت بتغيـرى وشـك تلات مرات فى اليوم.. دا أنا بشوفك ما اعرفكيش..

- أخجلتم تواضعنا...

- منين البنطلون ده يا مدام ألفت؟؟

- عجبك؟؟

- يجنن..

- من أمريكا رأسا بالتليكس وحياتك..

ترفع البنطلون فتكشف عن خلخال زجاجى أحمر.. وتتزاحم الأنظار على الخلخال العجيب.. بينما تقول تانت ألفت فى اختيال.

- خلخال خضرة.. آخر موضة فى باريس.

وتهز ساقها فتصطلك الخلاخيل بجرس زجاجى..

تدور أكواب البيرة وتعود الثرثرة..

- مدام شهيرة لا تأتى منذ أيام..

- مريضة فى البيت عاودها الدور العصبى.

- سمعت أن زوجها رفض استمرارها فى علاج التدليك..

- وهى طبعا لا تستطيع أن تستغنى عن المدلك ولا عن التدليك.. ولهذا عاودها الدور.

- سوفاج..

- الحياة مملة..

- ايه رأيك نحضر الليلة دى الزار اللى عاملاه مدام شريفة..

- فكرة هايلة..

- أنا حا اتعشى فى اللانترن..

- أيه رأيك فى برتيته كونكان...

- أنا حايجينى دور عصبى..

- تعالوا نشوف الفنجان عند صاحبنا الإيطالى.. «فردى» كلمته لا تنزل الأرض..

- الحياة مملة..

إحداهن تدير كاسيت ريكوردر للمغنية داليـدا.. الأغنيـة تقـول بالفرنسية:

خذنى بين أحضانك حتى أذوب وأتحول إلى دموع.
مزق عنى ثوب العادة

واهتك ستر الملل
دعنى أذوق الفوضى
وأحطم كل شىء
وأقول إنى قد عشت ذات مساء
ولدت من جديد فى حضن حبيبى..
صرخات استحسان من المجموعة.
تصفيق.. خبط على الموائد..

عيون بليدة متعبة من السهر تتألق وكأنما صحت فجأة..

تدور أكواب البيرة من جديد..

بنات من الجالسات يشاورن إلى رجلين يجلسـان بعيـدا فى ركن منعزل..

- هاى..

وإشارة من أحد الرجلين..

- هاى..

بينما الآخر غارق إلى أذنيه فى كتاب لا يحفل بشىء..

زميله يشده من أذنه..

- يا أخى كفايه كتب.. من يترك هذه الزهرات اليانعات الفاتنات ويغرق فى هذا الورق الأصفر البالى؟؟

فقال الرجل فى لامبالاة:

- هن زهرات بلاستيك.. لا رائحة ولا نضارة ولا حياة.. هـؤلاء النسوة هن نهاية الإمبراطورية الرومانية.

فقال الآخر وهو يفرك جبهته متحيرا:

- بتقول إيه؟.

- هى ملاحظات تاريخية..

- لا أفهم..

- أعنى كلما ظهرت نسوة يتكلمن هكذا فتلك دلالة على نهـاية

حضارة وبدايةحضارة.. علامة على أن هنـاك عصرا يمـوت وعصرا يولد..

- مازلت لا أفهم شيئا..

- أحيانا يموت الميت ويتأخر إعلان وفاته.

- ماذا تقصد؟

- أقصد هذا هو حالنا.. ولكن إعلان الوفاة لابد قادم.. وإعلان ميلاد العصر الجديد قادم فى أعقابه.. ولن يطول الانتظار..

قال صاحبنا الذى يتعجل الملذات المضمونة:

- أنا لا أفهم شيئا من هذا الكلام الفارغ.. عن إذنك.. سـوف أذهب أنا للزهور البلاستيك.. وخليك أنت مع كتابك..

وذهب صاحبنا لينضم إلى حلقة البيرة..

وبقى الرجل مع كتابه..

الرصاصة

كان الرجل يجلس مكتوف اليدين معصوب العينين لا يعرف أين ولا متى ولا من الذى يضع فوهة المسدس على رأسه.. وإنما هو ظلام حالك.. وصوت أجش يخرج من بطن الظلمة:

- هل أنت محمود السويفى؟

- نعم.

- تعترف أنك كافر مارق زنديق خارج على دين الله وأنك تساند دولة الكفر وتؤيدها؟

- أنا أقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فكيف أكون كافرا؟

- لو كنت تقول إن محمدا رسول الله بحق لاتبعته.

- أنا أتبعه قدر طاقتى.

- كان رسول الله يطلق لحيته وأنت تحلقها فكيف تدعى اتباعه؟

- وكان رسول الله يركب البغلة وأنتم تركبون القطار فهل خرجتم

على السنة بذلك.. إن معنى السنة الأفعال الدالة على الخلق والقيم وليست أية أفعال.. واللحية لا تدل على شيء.. وكاسترو ملحد ويربى لحيته .. وجيفارا أنكر وجود الله في جميع أحاديثه فهل تنفعه لحيته.. وراسبوتين راهب الفسق والعهر له أطول لحية.. أنا لا أفهم ماذا تعنى لحية يصنعها ويقصها مقص حلاق في دقيقة.. وماذا تضيف أو تعطى للإسلام.

- تعترف أنك تعيش في عالم جاهلى؟

- وأشنع من العالم الجاهلى.

- عالم سافل منحرف ضال.

- وأشنع من ذلك.. مجنون ولا معقول بدليل وجود سيادتك فيه.

- ولكنك واحد من الذين يقودون هذا العالم بالكلمة والأمر والتوجيه والإدارة.

- أحاول أن أصلح منه قدر استطاعتى.

- أنت تشتغل في الإعلام فما رأيك في الإعلام.. ما رأيك في حال التليفزيون والسينما والمسرح والصحيفة؟.

- تسالى يالب.. ولكننا نحاول من حين لآخر أن نقول شيئا ذا قيمة.

- ثم يضيع الكلام في طوفان الرقص والطبل والزمر والهزل.

- هذا شأن العالم دائما من خمسة آلاف سنة كانت الراقصة

تكسب أكثر من الكاتب والطبال يكسب أكثر من الخباز والنجار والحداد.. ولو أنك دعوت اينشتين اليوم لندوة علمية.. ثم دعوت امرأة عارية لحديث صحفى، لترك الجمهور اينشتين وعلمه ولتجمعوا حول المرأة العارية بالألوف.. وهذا ليس ذنبنا.. وإنما سببه أن أكثر الناس من البهم ومن أهل الهوى ومن عبيد الشهوات - وهم لذلك يشجعون التافه من الأمور وينصرفون عن الجاد.

- ولهذا جئنا لنصلح العالم.

- ليس بالرصاص ولا بالمدافع الرشاشة ولا بالمعتقلات والإرهاب تصنع الفضائل.. لن تجعل من الناس مسلمين مثل أبى بكر بقرار وزارى ولن تصلح هذا العالم برفضه وتكفيره وإطلاق النار عليه، سيادتك لست مسلما وإنما مجرم.

- أنا أقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فكيف أكون مجرما؟

- أنت تقول لا اله إلا نحن ومن خالفنا كفر ومن خرج عنا تزندق ومن عارضنا عليه اللعنة. أنت طالب سلطة وسيطرة وجبروت وتلك شهوات نهى الله عنها فقال لنبيه «ما أنت عليهم بجبار» وقال له«لست عليهم بمسيطر» وحدد دوره قائلا: «إنما أنت منذر».. «وإن عليك إلا البلاغ».. وأطلق الحرية لكافة الناس فى الاستجابة أو الرفض فقال: «قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».. وقال: «لكم دينكم ولى دين».. وقال: «لا يضركم من ضل اذا اهتديتم».. ثم أفرد الله نفسه بالعلم والبت فى قضية التكفير، فقال «هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى».. وقال

«لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» ولكنكم تزكون أنفسكم على الأمة كلها.. وتكفرونها كلها وتدعون لأنفسكم العصمة.

- تعترف أنك رجل كثير الأخطاء وأن ماضيك مثقل وحاضرك لا يبرأ من الشبهة؟

- كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين عند الله التوابون.. وأنا أتوب إلى الله كل يوم وكل ساعة.

- ولكنك شربت الخمر وزنيت.

- لست أدعى عصمة ولا ولاية ولا نبوة ولا قيادة وما أنا إلا صارخ فى برية يحمل على ظهره أوزاره ولكنه يرتجى المغفرة ويدعو إلى الخير.

- تدعو إلى العفة وقد زنيت وتنهى عن الخمر وقد شربتها فماذا يكون شأنك إلا كما قال رسول الله عن علماء آخر الزمان بأنهم كغثاء السيل لا خير فيهم.

- صدق رسول الله .. والله إننا كغثاء السيل ولكن ما حيلتنا وقد طم السيل وجرف الجميع ولوث الجميع وما بقى واحد إلا مسته شبهة أو تلوث منه البال والخاطر.

- هذا اعتراف بأن هذا العصر لا يصلح إلا أن يكون حطبا لجهنم.. أليست هذه إدانة شاملة؟.

- لا يدين إلا الديان ولا يحكم بالنار إلا رب النار، وقد قال ربنا عن نفسه «وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى». وقال

عن نفسه إنه لا يسأل عما يفعل .. وقال إنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وقال رحمتى وسعت كل شىء.. وليس من حقك أن تحجر على رحمة الله ولا أن تدخلنا النار وتدخل نفسك الجنة إلا إذا كنت قد تألهت وتصورت نفسك وصيا على العالمين.

– لقد اعترفت بأنك شربت الخمر وزنيت.

– من لم يرتكب منكم خطيئة فليرمنا بحجر.

فأجاب الرجل فى زهو واختيال:

– أنا لم أرتكب خطيئة.

– تلك الدعوى هى كبرى خطيئاتك وسوف تحاسب عنها حسابا عسيرا.

– أبعلماء أمثالكم نحارب الكفار؟

– إذا كنا سيئين فالكفار أسوأ والله ينصر السيئ على الأسوأ والله عليم بضعف الناس وهو القائل: «اتقوا الله ما استطعتم».

– وهو القائل: «اتقوا الله حق تقاته».

– ذلك القول للأنبياء ولست منهم، إنما أنا بشر عادى أخطأ وأصاب وعمل عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه.. ثم خبرنى لماذا تجعل من نفسك منتقما.. وهل أعطاك الله الوكالة عنه أم أعطيتها لنفسك وبأى حق تتغطرس علينا هكذا وتطلق التهم عن يمين وعن شمال وأنت حدث قليل التجربة لم تتجاوز السابعة عشرة

من عمرك ثم تفتينا فى الإسلام وأنت لم تحفظ بعد قرآنا ولا درست سنة ولا جلست إلى علماء ولا سهرت على مرجع وتختال بعفتك وطهارتك وأنت لم تتعرض بعد لما تعرضنا له من مغريات.. وما حكم عفة بلا مكابدة وطهارة بلا ابتلاء إلا أن تكون مراهقة وغرورا..

– أنتم تلوون ألسنتكم بالعلم وأنتم زناة فاسقون مكانكم جهنم وسأشيعك بهذه الرصاصة إلى مكانك.

– أعرفت مكانى الذى ستشيعنى إليه برصاصتك.. ذلك والله غرور أخر وادعاء بعلم الآخرة بعد ادعائك لعلم الدنيا.

– ابك على مصيرك.

– والله ما ألقى الله باكيا بل ألقاه راجيا رحمته.. وهو الذى أنشأنى من تراب الأرض ويعلم ضعفى وهو القائل «خلق الإنسان ضعيفا» والله ما أكف عن الأمل فى رحمة الله أبدا.

– ذلك ظن الذين كفروا.

– بل هو قول الذين آمنوا وسيخلف الله ظنك والله خلاف الظنون.

– وشد الرجل أصابعه على زناد المسدس فى غيظ ليقول فى كلمة أخيرة:

– ألك مطلب أخير؟

– أنت أهون عند الله من أن أطلب منك شيئا وهذه الدنيا أتفه

من أن ألتفت اليها بمطمع.

– أحاقد أنت على؟

– بل إنك لتحسن إلى بهذه الرصاصة وتتصـدق علـى بهـذه الشهادة وتعطينى الفرصة لأدفع فى كلمة حق أغلى ثمن، وتلك نعمـة من الله أشكره عليها، الحمد الله على ما أعطى وما أخذ.

وضغط الرجل على الزناد فى غيظ فانطلقت الرصاصة وسقط رجل وزاد عدد المجرمين واحدا.. ولم ينصلح فى العالم أى شىء بـل زاد ضلالا على ضلال.

حكاية الدكتور إسكندر

كان الدكتور ألبير إسكندر يلقى محاضرة على تلاميذه فى نـظرية ردود الأفعال.

وكان جموع الطلبة يملئون عنبر الأمـراض العقليـة ويحيـطون بأستاذهم وقد تدلت السماعات من أعناقهم وكل واحـد يحـاول أن يتسلق برأسه على كتف الآخر ليشاهد الشروح التى يقدمها الأسـتاذ على المرضى.

قال الأستاذ فى اعتداد:

إن هؤلاء المرضى هم أصدق دليل على النظرية السلوكية.. فـكل منهم يخرج بعد شبهور من هذه الزنازين بشخصية مختلفة تماما غير الشخصية التى دخل بها.. كل منهم يصبح شخصا آخر تماما.. ولـو حاولت أن تتعرف عليه لما عرفته وكأنما خرج من بطن آخر غير بطن أمه.

وأردف الدكتور معلقا بسخريته الإلحادية المعروفة وموجها كلامه

إلى طالب بلحية.. هذا المريض أمامك تقـرأ فى أوراقـه وصـفين لشخصيتين مختلفتين تماما.. شخصيته الإجرامية التى دخل بهـا.. والشخصية الثانية التى يخرج بها اليوم بعد الصدمات الـكهربائية.. ولو كنت أنت الله لما عرفت أيا من هذين الشخصين تبعث وأيهمـا تحاسب وأيهما تعاقب.. وسوف تقف أمامه فـلا تـدرى أيـا مـن شخصيتيه هى حقيقته.. ولكن هنا مفتاح اللغز.. فلا توجد شـخصية حقيقية وشخصية مزيفة.. بل لا توجد حقيقة ثابتة اسـمها فـلان.. وإنما نحن أمام ردود أفعال وأنماط سلوكية تتداول علـى الإنسـان كما تتداول الفصول بأجوائها المختلفة على الأرض وكمـا تتعـاقب تحولات الليل والنهار.

وهذا هو الإنسان.. مجموعة ردود أفعال ولا أكثر وما نسميه روحا ونفسا وعقلا هو نتاج تراكمات هذه الـردود العصـبية وتـداخلها وتعقدها وترابطها فى ميول ورغبات ثابتة هـى الغـرائز والمشـاعر والعواطف.

الإنسان ليس أكثر من جهاز إلكترونى ومجموعة أسلاك وكابـلات ومولدات طاقة وشاشات رادارية للمدركات السمعية والبصرية.

ولا حاجة بنا إلى افتراض روح ونفس وخلود بعد الموت وحساب وبعث.. ولا حاجة بنا إلى افتراض خالق.. فنحن أمام مـادة صرفـة وما نرى أمامنا من عقل وعواطف وضمير.. ما هى إلا صفات هـذه المادة بعينها فى مستوى من مستوياتها.. وكما اجتمعت هذه المـادة لتؤلف إنسانا، فإنها تعود فتنفرط لتؤلف ترابا دونما عـودة ودونمـا

بعث.. والقول بأى شىء غير ذلك هو محض هراء غير علمى لا يستند على أساس.

وجميع الحالات المرضية حولكم تقدم الدليل.. فكل هذه الحالات العقلية تستجيب للعلاجات المادية بالصدمات الكهربائية والحقن والأقراص والمخدرات والمسكنات.. ومالا يستجيب منها لهذه العلاجات يتحسن بالتدخل الجراحى الذى يستأصل فصا معينا من المخ أو يقطع مسار حزمة عصبية بعينها وهذا يدل على أننا أمام ماكينة يمكن إصلاحها كما يمكن إتلافها بقطع سلك أو استبدال قطعة غيار.

وتسرى الهمهمة فى الطلبة.. ولكن لا أحد يجد فى نفسه الشجاعة ولا المادة العلمية ليناقش.

وتبدو ابتسامة راحة على شفتى الدكتور وقد أطلق هذه الكلمات وكأنما استعاد توازنا مفقودا أو أزاح شكا جاثما على صدره.

هكذا يشعر دائما بتلك الراحة كلما انتهى إلى تلك النتيجة.. إنه لا حقيقة هناك.. وكأنما تحرره تلك النتيجة من قلق داخلى يعذبه.

ويتفرق الطلبة وقد ازدادوا بلبلة.. ولا يبدو عليهم أنهم قد فهموا شيئا والحق أن الدكتور لم يكن يعنيه كثيرا أن يفهموا أولا يفهموا.

والحق أنه كان أكثر الوقت يخاطب نفسه وليس الطلبة.. يخاطب ذلك القلق الداخلى الذى لا يهدأ.

ونعرفكم أكثر ببطلنا.. هو الدكتور ألبير إسكندر مدير مستشفى

الأمراض العقلية F. R. C.S. فى باثولوجيا الأعصاب.. دكتوراه بـدرجة الشرف على رسالته فى نظرية ردود الأفعال، شهادة الزمالة بجمعيـة الأطباء العقليين فى جنيف.. عميد طب الأعظمية بـالعراق.. نقيـب أطباء سابق.. مدير مستشفى خاص بالمعادى.

ذلك هو بطلنا اللامع الناجح الذى سوف ندخل بيته فنجد حيـاة على النقيض تماما من هذا النجاح والالتماع الذى يطالعنا على باب العيادة وفى أعمدة الصحف وعناوين الأخبار.

سوف يستقبلنا على الباب رجل كئيب يخيل إلينا أنه عاش عمـره كله لا يبتسم، هو رئيس الخدم.. ثم نتعـرف علـى طبـاخ نحيـل ممصوص يبدو أنه لا يأكل أبدا.. ثم نسمع صـوتا رفيعـا مـزعجا معدنيا لا يكف عن الصياح هو صوت الدادة.. ثم خادمة تتحرك مثل المكوك ولا تنطق .. ثم نتجول فى شقة واسعة من سـبع غـرف ذات جدران رمادية مقبضة.. ونتعرف على الولدين الـوحيدين للـدكتور.. وأحدهما مصاب بشلل أطفال ويمشى بعكازين، والآخر مصاب بتخلف عقلى. وفى إحدى غرف النوم نجد امرأة تحتضـن كراسـة أشـعار فرنسية وراديو ترانزستور صغير وفى يدها سماعة تليفون لا تتركها.. تلك هى حرم الدكتور.

ويعيش الدكتور وزوجته فى غرف نوم منفصلة ولا يلتقيان إلا على شجار ولا يتبادلان إلا سبابا.

والزوجة تشكو من عدة التهابات مزمنة فى المجارى التناسلية بعد ولادة عسرة وهى لهذا لا تطيق أن يقربها زوجها.

ذلك هو الوجه الآخر القاتم من حياة الدكتور إسكندر اللامعة.

والدكتور يستدل بحياته على صدق نظريته.. فالنقص الجنسى الذى تعانيه زوجته هو السبب فى هذه الهستيريا والرومانتيكية وحياة الشعر والخيال التى تعيشها، كما أن هذا النقص ذاته كان حافزا له على التسامى بالإغراق فى العلم والعكوف على الدراسات. ولو أن حياتهما سارت على منوال طبيعى لكان لكل منهما الآن شخصية مختلفة وهكذا لا حقيقة هناك.. وإنما مجرد أشواق مادية تنادى على ردود أفعالها.

بل إن ذلك الابن الذى أصابه التخلف العقلى كان هو الآخر ضحية لتعاطى الزوجة المخدرات أثناء الحمل.. وذلك دليل آخر على الأصل المادى لكل شيء.

ولن نسأل الدكتور.. كيف تقوم هناك أفعال وردود أفعال بدون أن تكون هناك نفس موجودة ابتداء.. لتفعل وتنفعل.

ولن نقول له.

من كان يفعل طول الوقت ومن كان ينفعل سواه هو وسوى نفسه التى جعلها موضوعا لشكه وإنكاره..لن نقول له.. إنه الحقيقة.. وإنه كان موجودا طوال الوقت وكان حاضرا ابتداء.. قبل أى فعل وقبل أى رد فعل.

لن نقول له إن كل ما يقوله ويكتبه مجرد قنابل دخان يحاول أن يخفى بها تلك الحقيقة التى لا يستطيع مواجهتها.

ولن نسأله لماذا لم يستطع بعلمه وتعاليمه أن يرد ابتسامة واحدة إلى ذلك البيت الكئيب.

وسوف نمسك عن الكلام رفقا به وحتى لا نزيد متاعبه فإنه يجد من المضايقات ما يكفيه.. وسوف نمضى رأسا إلى ذلك الختام اللامعقول والفجائى للقصة الذى قام فيه الدكتور بأكبر رد فعل فى حياته.

سوف نمضى إلى ذلك اليوم الملتهب من أغسطس ونصاحبه فى مروره بالمستشفى من عنبر إلى عنبر.. ثم نمشى معه إلى المصعد ومن خلفه رتل الممرضات ونصاحبه إلى الطابق السابع.

ونسير معه إلى غرفة بالدرجة الأولى حيث يرقد مريض من بلد عربى.

ونراه وهو يلقى بنظرة خاطفة على المريض.. ثم يمضى يتفحص الأوراق المعلقة بسريره ويقرأ الرسوم البيانية للنبض والحرارة والضغط ويمر بعينيه فى التحاليل المعملية للدم والبول والسائل الشوكى.. ثم وهو يميل مصغيا إلى همهمة الممرضة وهى تهمس إليه بأن المريض قام بعدة محاولات انتحارية.. وأنه ابتلع أنبوبة أسبرين ثم حاول قطع شريانه.. ثم حاول أن يخنق نفسه بالملاءة.

ونسمعه وهو يأمر بحقنة هيوسين فورية.

ثم يؤشر بعمل صدمة كهربائية.

ثم نصاحبه وهو يخرج من عند المريض ليمشى فى تثاقل إلى غرفته.

ونراه وهو يلقى بنفسه على الكرسى أمام مكتبه.. ونرى ذلك الظل القاتم الرمادى من الكآبة الذى اكتنفه وغطى ملامحه.. ونـرى تلك اللمعة فى العينين.. وكأنما هناك أشياء مختبئة قد خرجت من مكامنها فجأة وداهمته.. تلك الأشياء التى كان يتلهى عنها بـدوامة العمـل حتى إذا فرغ من عمله برزت له فجأة من مخـابئها وكأنهـا أفـاع خرجت من تحت كرسيه لتلتف حوله وتعتصره.

والذى كان يطل فى تحولات عينيه فى تلك اللحـظة كان يـراهما كسراجين ينطفئان ويخلفان سوادا من اليأس المبهم لاحدود له.

كان يبدو فى تلك اللحظة عجوزا ذاهلا مريضا أكثر مـن جميـع مرضاه.

وكان يبدو مثل برج شامخ تآكل أسفله وبدأ يميل قليلا قليلا حتى بلغ النقطة الحرجة التى لا نجاة بعدها. والتى لا تنفع فيها نجدة.

لقد انفض السامر وبقى وحده مع نفسه وجها لـوجه ذلك اللقـاء الذى يخشاه ويهرب منه.

وقد ظل يهرب من ذلك اللقاء وظل يجرى هاربا منه ستين سـنة يؤلف الكتب ويناقش ويجادل ويرفع صوته حتـى يغـطى علـى تلك الهمهمة القلقة التى تعلو بداخله.

وفى تلك اللحظة داهمه القلق حتى لقد شعر بتجـويفه الصـدرى يتحول إلى خواء.. وشعر بنفسه فى الهواء وقد تلاشت الأرض التـى كان يقف عيها فجأة.

واستولى عليه ذلك الإحساس الساحق باللامعنى.. واللا جـدوى.. واللا ثمرة.

ورأى كل شيء خاويا مجوفا.

جميع اللحظات خاوية مجوفة.

كل اللذات خاوية مجوفة.

كل المكاسب لا شيء.

الوجود عدم.

هو عدم.

وسحقه الشعور بالعدمية.. والمحو.
وخيم عليه إحساس بالظلمة.. والجدب.. والعقم المطلق.
وشعر بنفسه يهوى من حالق.. يهوى.. ويهوى.
ولم يستطع أن يحتمل.

ورأى الواقفون بحديقة المستشفى فى تلك اللحظة منظراً عجيبا.

رأوا الدكتور إسكندر بلحمه ودمه يقف فى شرفة الـدور السـابع يحملق فى الأرض وقد اتسعت عيناه فى ذهول.. ورأوا يداه تمتد إلى فمه بأشياء يبتلعها.. ورأوه يميل على سور الشرفة.. ثم يميل ويميل.. ثم يلقى بنفسه من الدور السابع ليرتطم بالأرض جثة هامدة.

وهكذا انتهت حياة الدكتور إسكندر بأكبر رد فعل.
ونستعير أسلوبه العلمى فى التفسير فنقول:

لقد أدان الرجل نفسه بنفسه.

وكتب بيديه الحكم النهائى على نظريته.

فالحياة تصبح مستحيلة تماما إذا خلت من المعنى وأقفرت من الإحساس بالحق والخلود والايمان.

الحب والموت

كان التشخيص .. سرطانا بالثدى من الدرجة الثانية.. وقال لهـا الطبيب.. هناك احتمال لنجاح جراحة استئصال كامل ولا يجـب أن نضيع الفرصة.

قالت لخطيبها ودموعها على خديها : أتتزوجنى بثدى واحد؟

قال فى يقين : وبدون أثداء.

قالت : كنت تحب ثديي وتصف نهوده واستدارته فى أشعارك.

قال : ما كنت أصف إلا خيالى فما رأيت ثديك ولا لمسته ويمكننى أن أمضى فى خيالى فأخلق من العدم ما أشاء.

قالت : سوف أضع مكانه ثديا صناعيا من رغوة المطاط.

قال : وهل اللحم والدم إلا نوع آخر من الرغوة الخلـوية.. نحـن ندبور لأنفسنا أوهاما وما الحق إلا الروح التى تسكن البدن والنفس التى تسكن القلب.

واستأصل الجراح الثدى ومعه أحزمة كثيرة من الغدد الليمفاوية.. وحاول أن يحاصر مكان الورم بالأشعة..ولكن الخلايا السرطانية كانت قد سرحت فى الدم.. وما لبثت أن ظهرت تجمعات خلوية سرطـانية فى الرئيتن.

ويصقت الفتاة دما.

ثم ظهرت تجمعات أخرى خلوية فى العمود الفقرى فمـا عـادت تستطيع أن تقوم أو تقف.

وبدأت تعانى آلاما حادة وتصحو بضع ساعات لتغيـب بعـد ذلك أغلب يومها وليلها فى المورفين.

قالت لخطيبها: لا فائدة.. سوف أموت.. أتحبنى؟

قال ودموعه على خديه: سوف أحبك أكثر.

قالت: كيف تحبنى بعد أن أموت.. كيف تحبنى بلا جسد.. أصلاة فى غير محراب.. أطواف بدون كعبة؟

قال: لقد هدموا أحجار الكعبة عدة مرات فى التاريخ فهل انتهـى الإيمان وهل انتهى الطواف.. إنما الطواف حول البقعة وليس حـول الحجر.. إنما الطواف حول نقطة فى التصور حول مركز الاهتمـام.. وكما يطوف القمر حول الأرض وكما تطوف الأرض حـول الشـمس وكما يطوف الأصغر حول الأكبر كذلك تطوف كل المخلوقات حول الله الأكبر من كل شيء.. وكلنا طوافون حول المشيئة الإلهية أردنـا أم أبينا.. وما الكعبة إلا الرمز.. وأنا لا أطوف حول حجارة.. ولو تهدمت

لما تغير فى نظرى شىء.. وسأظل أطوف حول مشيئة ربى إلى الأبد.

قالت فى حزن: كنت تقبل شفتى بلذة.

قال: بل كنت أقبل روحك.

- وكيف ستقبل الروح الآن بلا شفتين؟

- إننا لانفقد حبنا لساكن الضريح إذا لم نقبل نحاس الضريح.. لأن علاقتنا بروحه وقبلاتنا لروحه وليست للنحاس.

- هذا شعر أخشى ألا يصمد للواقع.

- هذا حق.

- أصارحك بأن حبى لك يختلف كثيراعن ذلك الحب فأنا كنت أريدك لحما ودما.. كنت أحب ريقك يجرى فى فمى وعرق يديك على وسادتى، أنا لا أستطيع أن أصلى فى غير محراب.. ولا أستطيع أن أعبد دون أن ألثم الحجر الأسود وأشعر بريق شفتى على سطحه العنبرى.

- أصدقك.. ربما كان هذا هو الفرق بين المرأة والرجل.. فالرجل يستطيع أن يحب فى تجريد والمرأة لا تستطيع أن تحب إلا تجسيدا.. لأنها هى ذاتها رحم الحياة التى تلد الأجساد.. المرأة جسم الدنيا والرجل عقلها.. ولهذا استطاع مجنون ليلى أن يهيم فى ليلى ويضيع حياته فى حبها دون أن يمسها.. ولم تستطع هى.. بل تزوجت وأنجبت مثل كل جنسها من بنات البشر.

- نعم.. ولهذا قرأت عن الحب العذرى ولم أفهمه قط.. ولا أصدق امرأة تتكلم عن حب عذرى أبدا.

وعادت تبكي مغمغمة.. يا ويلى.. يا ويلى من حرمانى منك.. إنه عدم.. إنه ظلمة لا أطيقها.. أتوسل إليك يا حبيبى تزوجنى الليلة.

وتزوجا بين ضباب الأفيون وخدر المسكنات وآلام السرطان ونشوة اللقاء الجسدى العارم.. وكانا أشبه بحياة تعانق الموت على شفا جرف هار.

ولهذا كانت لذاتهما مضاعفة ولهفاتهما محترقة وكأنها لثمات خاطفة من خلال قضبان لسجين برىء ذاهب إلى الإعدام.

وكأنما احترمت قوانين الغيب هذا اللقاء فتوقف نمو الخلايا السرطانية بضعة أيام ليتيح لهما فسحة لذلك الحوار المحترق بين الحياة والموت.

وكأنما قال الحب للموت.. توقف لحظة.. فتوقف.

وكانت تقول له.. كم ألعن ذلك الأفيون لأنه يحجبنى عن الألم كما يحجبنى عنك، ولأنه يقيم حولى أستارا من الوهم فأشعر كأنما أمسكك بقفاز وليس بيدى.. كم أريد أن أباشرك بلا وسائط وبلا حجب.. فأصير أنا أنت بالحق والحقيقة وبالدم والجسد ويصير كلانا كائنا واحدا.. فيقول لها وهو يبكى : فى الجنة سوف يباشر بعضنا بعضا بلا وسائط وبلا حجب فنتوحد كأرواح أما فى الدنيا فغلالة الأجساد والطين تفرقنا ولا أمل.

فتقول فى يأس: جنتى هى أنت ـقاتى اليوم ورغبتى أن تتـوحد طينتى وطينتك لتكونا سبيكة واحدة.. مالى أنا والأرواح.

فيقول مندهشا - أوثنية أنت.

فتقول: بل امرأة.. لقد أرادنى الله أن أكون دنيا لك فكيف تريدنى أن أكون آخرة.

فيقول متذكرا: تلك هى حواء فعلا التى ربطت آدم إلـى الأرض إلى قيام الساعة.. ما أجملك من حواء.

ونزلت سطوة الغيب فانهار الجرف بين الموت والحياة وأصـبحت جثة لا يسمع لها صوت ولا يرى لها كيان.

وتحول الحوار إلى كلام مبتور من طرف واحد هـو يصرخ وهـى لا تجيب.. ثم هو وحده يكلم ترابا.

ثم علامة تعجب أمام الباب الذى لا يعود منه أحد.

ثم سؤال.. ولا جواب.

المبروك

أفرغ الرجل كأس الخمر الرديئة فى جوفه ثم شرع يبكى ويتمتم نادما مستغفرا.. تبت إليك يارب.. لا أعود إلى شربها أبدا.. أعاهدك وأستغفرك.. وبعد لحظات كان يملأ كأسا أخرى ليلقيها فى جوفه ليعود فيستغفر باكيا مغمغما.. سامحنى يارب.. هذه آخر مرة.. تبت إليك ورجعت إليك وأنبت إليك.. ثم ما تلبث الغفلة أن تسيطر عليه ويعاوده ضعفه فيغالبه فيغلبه فينكب على كأس أخرى .. ثم يعود فيقف تائبا باكيا بالباب.

ذلك هو الشيخ مبروك.. وكانوا يسمونه «الشيخ» من باب السخرية بحاله.

ستون سنة ولكن هيكله المضعضع يوحى بأنه جاوز المائة..

جاء إلى الدنيا لقيطا ملقىً على الرصيف فى لفة وقضى صباه فى ملجأ للأيتام ثم فى سجن للأحداث.

لم يدع منكرا إلا قارفه ولا مخاضة أوحال إلا انغرس فيها.

كان يخرج من سجن ليدخل سجنا ويخرج من تخشيبة ليلقـى فى تخشيبة.

وانتهى حاله إلى أن أصبح حارسا فى قرافة.. ينام ويأكل ويشرب ويسكن مع الموتى.. يحرس القبور نهارا ثم يعود فينبشها ليلا ليبيع الجثث لطلبة الطب فى مقابل جنيهات قليلة يسكر بها.

ذلك هو «الشيخ مبروك» صاحب ملف السوابق الحافل..

ولكنه كان طرازا عجيبا من المجرمين..

كان مجرما «غلبانا» دائم البكاء دائم الندم منكسر الـوجه إلـى الأرض يلازمه الشعور بأنه حشرة وبأنه لا يستحق شعاع الشـمس الذى يطلعه الله عليه ولا نسمة الهواء التى يتنفسها ولا اللقمة الجافة التى يأكلها.

ولم يكن يرتكب ذنبا إلا كانت وراءه ضرورة ملحة تدفعه.. وحياته كلها كانت محاولة مستمرة للاستقامة دون جدوى.

فهو يغالب طبعه وطبعه يغلبه.

ويغالب ضعفه وضعفه يغلبه.

ثم يبكى فى النهاية ويشعر بالخزى والهوان.

ويحاول أن ينسى ذلك الهوان بالشرب فيزداد بالشرب هوانا.

يشعر دائما أن الله يراه.. ولا يدرى من أين يأتيه ذلك الشـعور.. ولا كيف يفعل ما يفعل أمام عين الله التى لا تنام.

شعوره الدائم الذى لا يفارقه هو الاشمئزاز من نفسه.

وهو شعور ملازم كالتنفس لا خلاص منه.. وكأنه صرصور غارق فى مستنقع من الصمغ كلما حاول الخلاص ازداد غرقا.

لا ينجيه من الموت يأسا إلا إيمانه بأن ذنوبه مهما عظمت فـإن عفو الله أعظم.. وإن الله لا تنفعه طاعتنا ولا تضره ذنوبنا.. فهو غنى بنفسه عن العالمين.. وهو الذى وسع كل شىء رحمة وعلما.. وهـو الوهاب الذى لا يحتاج لأحد..

لا يكف عن البكاء.

ولا يكف عن الوقوف بباب الـرحمة وان كان يشـعر أن يـديه ملطختان بالآثام.. يعرف الناس تاريخه ويسخرون منه ولكنهم يعطفون عليه.. والبعض يقول له.: ادع لنا يا شيخ مبروك.. فيقول لهم.. يدعو لكم الشيخ مبروك.. ولكن لا أنا شيخ ولا أنا مبروك.. ويبكى ويـدس يده المرتجفة تحت جلبابه ليخرج الزجاجة فيشربها ممزوجة بـدموعه ثم يمضى يحث الخطى لائذا بالجدران منكس الـوجه إلـى الأرض ليختفى فى ظلمة المقابر.. وهويستغفر ويطلب العفو.

واليوم كان على الشيخ مبروك أن يفتح حوش الحـاج إبـراهيم للمرة الخامسة ليتلقى الابن الخامس للحاج.. تلك القصة التى كانت تتكرر كل عام.. كلما أنجب الحاج ابنا شق له لحدا.

وكان قلب الشيخ مبروك ينفطر حزنا على ذلك الأب الواله الغارق فى دموعه.

قال الحاج وهو يبكى: ذلك هو ابنى الخامس.. بنتـى الـوحيدة

أصابها شلل الأطفال من شهور وأصبحت كسيحة تتحرك على كرسى بعجلات.. وبالأمس قال الطبيب.. إنه لا فائدة.. تآكلت جذور الأعصاب ولم يعد ينفع طب ولا دواء.. عن قريب نشق لها لحدا آخر يا شيخ مبروك.. عن قريب آتى بها إليك محمولة.. يارب رحمتك.

وألقى الرجل بنفسه على صدر الشيخ مبروك وراح يبكى وينهنه كطفل يتيم.

قال الحاج فى دموعه:

ادع لها بالشفاء ياشيخ مبروك.. لعل الله يشفيها بدعوتك..

قال الشيخ مبروك والخزى يملأ نبراته:

أنت أولى بالدعوة ياحاج.. أنت حجيت بيت الله.. وزرت النبى.. أما أنا فحجى كان إلى السجون وزياراتى للملاجئ والأحداث.. وحظى من تقوى الله هو ما ترى .. فكيف أجرؤ أن أرفع وجهى إلى الله بدعاء.

فعاد الحاج يقول باكيا:

بح صوتى بالدعاء وجاهدت نفسى صلاة وصوما فما استمعت السماء لدعائى.. ادع لها أنت ياشيخ مبروك.. فالله رب قلوب.. بحق الله ادع لها ولا تخيب رجاء أب مكلوم.

فرفع الشيخ مبروك يديه إلى السماء واجما خزيان وتوجه إلى الله بنظرات خجلى وتمتم بدعوة مخضلة بالدمع متهدجة بالانكسار:

- يارب اشفها فلا شافٍ سواك وعافها فلا معاف سواك..

ويكى الرجلان كما لم يبكيا منذ ولدا.

وفى اليوم التالى شهدت القرافة الحاج إبراهيم يبحث عن الشيخ مبروك.. ويفتش عنه كالمجنون وهو يقول لكل من يلقاه:

أين الشيخ مبروك.. أين الشيخ مبروك دلونى على مكانه.. بنتى شفيت من الشلل.. قامت من كرسيها ومشت وحدها وقال الدكتور هى معجزة..

أين الشيخ دبروك.. أين أجد الشيخ مبروك.

ولكن الشيخ مبروك كان قد مات ولقى ربه فى فجر ذلك اليوم.. ودفن حيث لفظ أنفاسه وهو يتمتم باكيا كعادته كلما وضع خده لينام..

رب اغفر لى فمن يغفر الذنوب إلا أنت.

رب إن ذنوبى وإن كثرت فإنها لن تضرك وطاعاتى وإن كثرت فإنها لن تنفعك فأنت الغنى عن العالمين.

رب مهما عظمت ذنوبى فإن عفوك أعظم ومهما كبرت آثامى فإن إحسانك أكبر.

سبحانك وسعت كل شيء رحمة وعلما.. فارحم ضعفى وعجزى وفاقتى وأنت القائل «خلق الإنسان ضعيفا».

رب اقبلنى مع المنكسرين الخائفين المشفقين الوجلين..

يارب أنت الرب وأنا العبد.. أنت الوجود وأنا العـدم سـبحانك لا أملك من نفسى شيئا ولا أملك لنفسى شيئا.

رب أسلمت نفسى إليك - وأسلمت ضـعفى إليـك.. وأسـملت حقيقتى إليك.. وأسلمت إرادتى إليك.. وأسملت روحى إليك.. لا حول ولا قوة إلا بك..

بك أحيا وبك أموت وبك أبعث.. وبك أنال المغفرة وبـك أدخـل الجنة.

وطلع فجر ذلك اليوم مع آخر انفاس الشيخ مبروك يسلمها إنـى ربه.

وانتهت قصة رجل من الخطائين كان أقرب إلى الله من كثير مـن الطائعين من أهل الغرور بطاعتهم.

رجل غفر الله له لأنه عرف مقامه.. وكانت حياته كلهـا انحنـاء وانكسارا ودخولا من الباب الضيق.

ملاطفة

الطريق من القاهرة إلى مرسى مطروح بالسيارة طريق طويل ممـل تتشابه فيه المناظر على مدى ساعات. آفاق ممتدة من الرمال وشريط أزرق من البحر يبدو ويختفى واهتزازات صاعدة هابطة: تهبط منهـا الأحشاء، ويصاب الرأس بالدوار.. ولولا ذلك الرفيق الثرثار ربما كان السائق قد أغفى على مقعد القيادة نائما من فرط الرتابة.

وفى مثل هذه المسافات الطويلة تحلو الثرثرة..

وصاحبنا الثرثار رجل قلق متوتر لا يعجبه شىء ولا يـرى مـن الإنسان إلا عيوبه ولا يرى فى الدنيا إلا جوانبها السالبة ولا يـرى فى الكون شيئا جديرا بالحمد.. فالكون مشروع فاشل والحيـاة صـفقة خاسرة نهايتها الموت.. والعطب والفساد يكتنف كل شىء.. فـالورد يذبل والشمس تأفل والجسد يشيخ والأرض تتبدل ولا شـىء يبقـى على حاله والإنسان يشرب دموعه مع كل ضحكة فأين الحكمة.. وأين الإبداع.. وأين الجمال.. وعلام ذلك التسبيح شكرا وحمـدا وعـلام تعفير الجباه سجودا وركوعا.. وكيف نشكر الخالق علـى الميـكروب والسرطان والزلزال والموت غرقا وحرقا.

أما صاحبنا الآخر فهو على النقيض، رجل مطمئن تكسوه دائماً ملامح الرضا والحمد والقناعة.. وفى رأيه أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.. وأن الله خلق الكون والانسان على أحسن صورة.. وأن الموت والشيخوخة والمرض هى ظلال لابد منها لكمال الصورة.. فما كانت الصحة لتعرف لولا المرض.. بل إن المرض يعطى الإنسان فيما يعطى.. المناعة والحصانة.. كما أنه يعلمه الصبر والجلد.. ثم هو الذى يخلق المناسبة للرحمة والتعاطف والبذل بين الناس.. وحكمه حكم لسعة البرد والحر التى تنبه الجسد وتستفزه ليحتشد.. ولو أخلد الإنسان إلى اعتدال دائم لاسترخت خلايا جسده وهلكت من الخمول والترف.. وشكرا للميكروب فهو يخلق للعقل وظيفة عاجلة ليفكر ويبتكر ويحتال على الإنقاذ.. وهل البنسلين والكلوروميسين والأريومسين وكافة عائلة المضادات الحيوية إلا مخلفات ميكروبات.. وهل نتداوى الآن من الميكروبات إلا بميكروبات كما تروى لنا آخر الأنباء الطبية.. وهل تصنع لنا الزبادى من اللبن إلا ميكروبات.. وهل يحصل النبات على سماده الطبيعى إلا بميكروبات فى درنات الجذور تثبت النتروجين وتسلمه للنبات سمادا جاهزا.

إن للشر دائما وجها آخر خفيا هو عين الخير.

ولولا الزلازل والبراكين التى تنفس عن الضغط الزائد فى باطن الأرض لا نفجرت الأرض بمن عليها من ملايين السنين.

وكما يقول الفيلسوف الحكيم أبو حامد الغزالى.. كلما ازداد

القوس اعوجاجا أعطى السهم توترا واندفاعا أكثر ليصيب هدفه، وذلك هو الكمال الذى يخفى فى باطن النقص.

ولهذا قال الغزالى بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان وأن الدنيا بما فيها من نقص هى أكمل مثال لدنيا زائلة.

قال الرجل الثرثار.. كل هذا كلام فى كلام.. وأحب أن أرى الآن لو كسرت ذراعك أو كف بصرك.. ماذا تقول؟

قال الرجل الهادئ:

أقول الحمد الله لطفت يارب فى قضائك وأبقيت لى ذراعا سليمة.. وأخذت بصرى وأبقيت سمعى.. فشكرا على ما أبقيت.. ولك الحكمة فيما أخذت.

قال الثرثار:

هذا دجل صريح.. وأراهن أنك أكبر دجال فيما تقول.. وأراهن أن الموقف سوف يختلف كثيرا إذا أصابك شىء من هذا.. وأنك سوف تسب الدين والملة.

قال الرجل المطمئن:

حاشا لله أن أفعل شيئا من ذلك.. وأنا أحسن الظن بالله.. وأرى جماله فى كل شىء.. وأرى رحمته تسبق عدله ولطفه يسبق رحمته.. فى كل قضاء.. ولا أراه ظالما أبدا.. تعالى ربى عن الظلم علوا كبيرا.

ولم يجب الرجل الثرثار... فقد وقعت العربة فى مطب فجأة

وانحرفت عجلة القيادة.. وظهرت عربة قادمة بسرعة مـن الاتجـاه الآخر.. وفقد السائق السيطرة على توجيه عربته تماما.. ورآها تخرج من يده إلى خارج الطريق المرصوف ثم تميل ميلا شـديدا لتنقلـب وتبدأ فى الدوران حول نفسها عدة مرات لتستقر على بعد مائة متر فى الرمال.

وخرج الرجل الثرثار شاحبا يرتجف وهو يتحسس نفسه ويدهش كيف لم يصب بخدش.. أما الرجل المطمئن فكان فاقد الوعى يتنفس بصعوبة ويخرج من فمه شخير.

وانطلق الرجل فى فزع إلى أقرب نقطة مرور واتصل تليفونيا بأقرب وحدة صحية وكانت وحدة العلمين على بعد عشرة كيلو مترات.

وجاءت عربة الإسعاف.. وقال طبيب الوحدة بعد الفحص الأولـى إن هناك تمزقا بالكلية اليمنى ونزيفا، وإن الحل الوحيد هـو نقـل المصاب فورا إلى الإسكندرية وإجراء جـراحة اسـتئصال عـاجلة للكلية..

وفى الغرفة رقم ٧ بعنبر الجـراحة بمسـتشفى الجـامعة.. كان المصاب مسجى على فراشه بعد أن خرج من غرفة العمليات.. وكان لايزال فى غفوة البنج.

وإلى جواره جلس صديقه الثرثار فى انتظار اللحظة التـى يفتـح فيها عينيه، وكان أول ما قال الرجل حينما فتح عينيه:

الحمد لله!

وكان الرجل الثرثار يجلس مبهوتا وكان مازال يرتجف من هـول ما رأى وما سمع وهو يتأرجح على عتبـة المـوت.. وكان لا يـزال يتحسس جسده السليم ولا يصدق كيف خرج سليما وكان الـطبيب يتحدث بالتليفون إلى قسم الباثولوجى.

ووضع الطبيب التليفون وظهرت على وجهه دهشة لا حد لها..

قال الطبيب وقد اتسعت حدقتاه:

هذا أمر عجيب.. أمر لا يصدق!

قال الرجل الثرثار.. كيف .. ماذا تعنى.. ماذا حدث؟

قال الطبيب وهو يبتلع لعابه من الانفعال

الكلية التى استئصلت..

قال الرجل الثرثار فى فضول:

ما خطبها..؟

قال الطبيب:

يقول تقرير الباثولوجى.. إنه كان بها سرطان وليد فى أول مراحله.

وخيم الصمت على الثلاثة برهة وكأن على رءوسهم الـطير، ثـم استأنف الطبيب الكلام:

لولا هذا الحادث الذى استأصلنا بسببه الكلية لـكان المصـاب سيهلك بالسرطان حتما.. هذا عجيب هذا حادث إنقاذ.. هذا حـادث ملاطفة.. وليس نكبة.

ان ما حدث كان خيرا لاحد له..

وابتسم الرجل المطمئن ابتسامة واهنة فى فراشه وقـال: الحمـد لله..

إن الله يعاملنى بنياتى فقد كنت دائما أحسن الظن به.

والتفت إلى صاحبه الثرثار قائلا:

أرأيت يا صديقى.. فذلك هو الخيـر البـاطن فى الشر. وسـكت الطبيب ساهما.

وبهت الذى كفر.. فلم يجد ما يقول.

شكراً لقد أديت وظيفتك

كان الرجل من هواة تربية النحل وكانت عنده مناحل فى حديقته فى الشاليه الأنيق الذى يتردد عليه فى الهرم.

وكانت أمتع أوقاته تلك الساعات التى يقضيها فى جمع العسل من الخلايا.

والحق أن هوايته الرئيسية فى الحياة كانت جمع العسل وجنى الشهد واستخلاص الزبد والنفع والمصلحة واللذة من كل شىء بأقل مجهود.

اكتشف أن التجارة هى أحسن وسيلة لاستخلاص أقصى نفع فى أقل وقت فاشتغل بالتجارة.. ثم اكتشف أن التجارة فى المال ذاته وفى العملات المالية هى زبدة المسألة فاشتغل بالصرافة واستبدال وبيع العملات.. ثم اكتشف أن السمسرة والوساطة أربح من الاثنين فاشتغل بالوساطة والسمسرة وكان يكسب نصف مليون جنيه بمكالمة تليفونية بين عميلين فى دقائق.

ثم نظر إلى الحياة فاكتشف أن زبدتها فى الارتحـال والأسـفار وانتهاب اللذات وأنه يمكن أن يعتصر من الحياة أقصى ما يمـكن أن تعطيه فى شهره وسكره وسفره وأن أقصى ما يمكن أن تعطيه الحيـاة هى المآكل والمشارب وذروة عطائها إغماءة نشـوانة بيـن ذراعـى امرأة.. فبدأ يتخصص فى الأمر واشترى الشاليه فى الهرم واسـتأجر معه عدة شقق وفيلات فى لندن وروما وباريس وأثينا.. وأعفى نفسـه من الزواج.. وتفرغ لسرقة الزوجات واختلاس أجمل باقة من النساء يقضي معهن ساعات فى هذه الغرفات الحالمة هى زبدة الأمر كله.

وكان من لزوم هذه الحياة أن يريح نفسه من المبادئ والأديـان والعقائد وأن يعفى نفسه من الضمير.. حسبه أن يؤمن باللحظة وأن يغرق فى الساعة التى هو فيها.. أما ألنظر فى الغيب والآخرة والثواب والعقاب والحرام والحلال والخوف من الذنوب فهى أمور معطلة أربح له أن يتركها لغيره ينشغل بها ويتفرغ هو للعاجل والأكيد والمفيد.

وكان اليوم جمعة فى شتاء قارص من يناير وقد صحا مـن نـومه متأخرا بعد ليلة عب فيها من اللذة ما شاء واعتصر من ضرع الحياة أقصى ما استطاعت الحياة أن تعطيه وأغفى فى حضن امـرأة وذاق أحلى قبلة واستمتع بأجمل عناق.

وأمام إغراء المال قل من كن يستطعن الصمود ومن حسن حـظه أن أكثر الجميلات المترفات من النساء كن مثله متخصصات فى نفس فنه الرفيع وهو كيف يأخذن من الحياة خـلاصتها دون أن يشـغلن أنفسهن بأن يعطينها شيئا.

ولهذا كانت الصفقة دائما طيبة.. وكانت دائما رابحة.

ولم يخطئ تقديره مرة واحدة.

وكانت عادته فى تلك الأيام بعد أن يلتهم إفطاره الدسم أن يمضى يفتش مناحله، وأن يقضى الساعات يتأمل ذلك السعى الدءوب لألوف النحلات الشغالة وهى تمضى إلى الحقول لتعمل فى دأب وصمت فى جمع الرحيق من الزهور لتعود محملة بمحصولها الوافر قبل الغروب.

وفى صمت تعمل فى تحويل هذا الرحيق فى بطونها إلى شهد.. ثم تصبه فى الخلايا لتخزنه ثم تختم عليه بالشمع.. ثم توزع بينها الوظائف، البعض يرعى البيض، والبعض يطعم اليرقات الصغيرة التى خرجت من الفقس.. والبعض يطعم الملكة بالغذاء الملكى وينظفها ويغسلها.. والبعض يمروح بأجنحته على باب الخلية ليكيف هواءها والبعض يحرس الباب من الأعداء وينتشر حول الخلية ليستطلع أخبار أى عدو.. بينما ألوف الذكور تأكل وتنام فى كسل وتعيش بلا عمل فى انتظار ذلك اليوم الوحيد من كل سنة حينما تغادر الملكة الخلية وتحلق بأجنحتها فى الجو.. فيتبعها سرب الذكور.. فتظل ترتفع وترتفع.. والذكور يتسابقون خلفها.. حتى يلحق بها أقواهم ولهذا الذكر الأقوى من الجميع تترك الملكة نفسها ليلقحها.. وبعد التلقيح تعود الملكة إلى الخلية لتبدأ دورة جديدة من التكاثر ووضع البيض.. أما الذكور فيعودون إلى الخلية ليلاقوا حتفهم.. إذ لم تعد لهم فائدة وأصبح تركهم يأكلون عالة على الجميع تبذيرا لا معنى له.. ولهذا كانت النحلات الشغالة تستقبلهم عند الباب باللدغ

والضرب والركل ثم تلقى بهم إلى الخارج ليتكفل البرد والجوع بالقضاء على البقية الباقية منهم.

وكان حظ صاحبنا فى ذلك اليوم البارد من يناير أن يرى هذه المجزرة الغريبة التى تجرى أمام عينيه كأنها شريط سينمائى.

رأى الذكور العائدين بعد التلقيح تقتلهم النحلات الشغالة واحدا بعد الآخر وتلقى بهم فى البرد والعراء؛

وكان غريبا أن يتأمل حال هذا المجتمع الحشرى العجيب حيث لا تحتل العملية الجنسية إلا يوما واحدا بل لحظة واحدة من يوم من عام كامل يمضى كله فى عمل دءوب مخلص للبناء والإنتاج.

لحظة واحدة ذات يوم كل عام ينال أحد الذكور حظا من تلك اللذة.. ثم يجد بعد ذلك من يقتله على الباب ويقول له.. شكرا.. لقد أديت وظيفتك.. ولم يعد لنا بك حاجة.. ثم تدور العجلة بعد ذلك لعام كامل.. لا يذكر أحد تلك اللذة ولا يفكر فيها ولا يسعى إليها.. وإنما ينقطع الكل للبناء والإنتاج وتكوين الشهد.. الذى يأكله صاحبنا.. صاحبنا الذى فرغ كل حياته وكل يوم وكل لحظة من سنى عمره فى سعى دءوب مستمر لجنى اللذة أينما وجدها فى القاهرة أو روما أو باريس أو لندن أو أثينا.. وكل ما يأتى من أعمال إنما هو فى خدمة تلك اللذات ولتكثيرها وتنويعها.

وذلك هو الإنسان.

وتلك هى الحشرة.. التى نعتبرها فى أدنى الدرك الحيوانى.

هل كانت مصادفة فى ذلك اليوم وصاحبنا يقلب الأمر فى فكره.. وقد اعتمد رأسه بين يديه وغرق فى التأمل.. أن مرقت رصاصة طائشة من ساحات التدريب القريبة واخترقت ذلك الرأس.. وأسكتت ما فيه من فكر إلى الابد.

أكانت رصاصة طائشة حقا كما ذكر بعد ذلك فى محضر البوليس، أم كانت رصاصة من بندقية زوج مخدوع عرف طريقه إلى رأس غريمه، أم كانت رصاصة وجهتها العناية الإلهية وقادها ملك الموت إلى ذلك الرأس.. هامسا كعادته فى أدب جم كما يفعل كل الملائكة.

شكرا.. لقد أديت وظيفتك.. ولم تعد للدنيا بك حاجة.

ذرة يورانيوم

كان الجو معبأ بالتوتر والخوف.

وبعد قليل يعود سيد البيت من سفرته القصيرة إلى العزبة.

ثلاثة أيام غاب فيها السيد عن البيت كانت كالإفراج من سجن مؤبد.

خرج الأطفال من غرفهم كأنهم يخرجون من زنازين وانطلقوا يمرحون ويلعبون ويغنون.

كل واحد أخرج لعبته التى يخفيها واستغرق فى هوايته التى يحبها.

والزوجة الملاك.. نسمة الربيع.. ووشوشة الجدول الرقراق التى لا يعلو لها صوت ولا تنبو لها كلمة.. أدارت الكاسيت لتستمع إلى الصوت الذى تحبه.

كانت ساعات اختلسوها وكأنها ليست من العمر.

وكانوا طوال الوقت يتبادلون النظر إلى ساعة الحائط وقلوبهم الصغيرة تدق مع دقاتها.. فبعد قليل سوف يعود الرعب ويدق الجبار الباب فيخفى كل واحد لعبته كأنه يخفي عورته أو جريمته ويعود الصمت الرهيب ليخيم على ذلك القصر الوادع كاللؤلؤة على البحر.

لقد فهم الأطفال بالغريزة ماذا يعنى قدوم أبيهم فكانوا يختفون تحت الأسرة.. ويختبئون وراء الأبواب.. وتخرس الألسن وتسكت الضحكات وتعلن الأحكام العرفية ويحظر التجول وينتشر الرعب ويحل الخوف والتوتر والتربص مكان السلام والأمن والطمأنينة.

أما الزوجة الملاك.. نسمة الربيع ووشوشة الجدول الرقراق.. التى لا يعلو لها صوت ولا تنبو لها كلمة فلا تفهم ماذا كان يريد زوجها وماذا ينقصه لقد صنعت له عشا من أعشاش الجنة فماذا يريد؟

وكانت تبكى فى صلاتها وهى ساجدة وتقول.. لماذا ابتليتنى يارب بهذا الرجل وهو آخر من يصلح لى.

ولم تكن تعلم أن الله منذ بدء التاريخ يضرب الناس بعضهم ببعض ليمتحن معادنهم ويجمع السباع والغزلان فى الغابة كما يجمع السالب والموجب فى الذرة كما يجمع الميكروب واللقاح المضاد فى الجسد كما يجمع عوامل الموت وعوامل الحياة فى الخلية.

ولا استثناء لأحد من هذا القانون.

حتى أنبياء الله وأحباؤه كانوا أكثر الناس بلاء وابتلاء بالمحن.

وفى ذلك القصر الذى يتلألأ كجوهرة على البحر ألقى الله

بالكراهية لتنام فى حضن الحب وجمع الخير والشر فى معركة يـومية ليرى ماذا يكون.

كان ذلك القصر أشبه بذرة يورانيوم غير مستقرة تتفجر بالطاقة.. وتفنى تدريجيا بما يجرى فيها من تصادمات.

وكان الضيوف الذين تجمعهم ليالى سمر حول أكواب الشـاى فى ذلك البيت لا يشعرون بتلك الطاقة المتفجرة التى تشيع فى الغرفات.

ولا أحد كان يتصور أن وراء هذا الهدوء عملية هـدم مسـتمرة ودائبة تجرى بين جزيئات ذلك البيت الجميل الذى يبدو من الخارج وادعا حنونا.

ولكنه كان هدوء البحر تتصارع فى باطنه الحيتان.. فما يكاد آخر ضيف يخرج ويغلق خلفه الباب حتى يستدير ذلك الـوحش بعينيـن كطلقتى مسدس ليتهم زوجته بالزنى مع كل واحد من هؤلاء الضيوف من وراء ظهره وبأنها أنجبت هذا الطفل أو ذاك من هذا الـرجل أو ذاك.. وبأنها خانته. وتخونه كل لحظة وكل يوم.. وأنه سوف يـكسر دماغها ليعرف ماذا يعشش فى ذلك المخ الملوث.. وسوف يبقر بطنها ليعرف ممن حملت.. سوف ينتزع قلبها من صدرها ليعـرف مـاذا يشغله.. وأنه سوف يفقأ هاتين العينين الغادرتين اللئيمتين.

وكالعادة يتصاعد معه الانفعال إلى ذروته.. ويخيل له الـوهم تلك الاتهامات ويجسدها وكأنها حقيقة.. فتمتد يده بـالضرب والصـفع.. وتسقط الزوجة الملاك راكعة باكية لا يخرج شفتيها إلا أنين خـافت مكتوم وكأنما تطحنها آلة تعذيب هائلة.

وترفع عينيها فى بؤس لا تعرف ماذا تقول..

إنه يتهمها بما لا يخطر لها على بال ويعذبها على ذنوب لم ترتكبها ويصرخ فيها كالوحش:

- أنت امرأة جزاؤك الرجم حتى الموت.. اعترفى.

- وبماذا أعترف؟

- بأنك زانية.

- ولكنى لم أزن ولم يمسسنى رجل غيرك.

- كاذبة.. أقسمى على المصحف.

فتقسم.

- اقسمى على عينيك بالعمى إن كنت كاذبة.

فتقسم.

- بل أنت كاذبة وفاسقة وملعونة.

ولابد أن تكون كاذبة وفاسقة وملعونة ليحق عليها عقابه وليجد الذريعة ليتمادى فى شره وتعذيبه وعقلها الممزق يغمغم كالمصلوب.. ماذا يريد الرجل.. ماذا يريد ليهدأ ويرتاح ويكف عن هذا الإرهاب.

لم يبق إلا أن تكذب وتدعى زورا أنها فعلت وفعلت.

لقد جربت الصدق فلم يثمر إلا مزيدا من الاتهام ومزيدا من القسوة.

يارب كيف السبيل إلى راحته؟

الطلاق مستحيل.

ورد الأذى بمثله ليس فى طاقتها ولا فى إمكانها.

والانتقام منه بخيانته ليس فى طبعها.

لم يبق إلا أن تقر بما لم تفعله لتنتهى الدائرة المفرغة

وتجمع كل شجاعتها وبؤسها لتقول فى صوت مرتجف: نعم.. لقد فعلتها.

ويتوقف السوط فى يد الجبار ويصفر وجهه ويتندى جبينه بالعرق البارد ويتمتم فى رعب وكأنه يتمثل الصورة لأول مرة.

وهؤلاء أولاد زنى.. أولاد سفاح؟

فتقول بصوت ميت:

نعم..

فيغمغم وشجاعته تهرب منه مع كل كلمة..

- ولم فعلت ذلك.. لم خنتنى مع كل هؤلاء الرجال؟

فتقول فى آلية ودون أن تفكر:

لأنهم كانوا أجمل وأرق وأنبل وأكثر رجولة.

وتطأطئ رأسها فى الأرض وقد أدركت أن نهايتها قد حانت

ولقد كانت النهاية قد حانت بالفعل ولكن ليس نهايتها.

فقد سقط السوط من يد الجبار.. وتجمد الكلام في حلقه.. واكتسى وجهه بلون التراب.. وأمسك صدره من الخفقان وكأنه سينسحق قلبه مع كل خفقة ثم سقط فاقد النطق بسكتة قلبية.

انسحق الجبروت بالهوان كما تنسحق المادة بالمادة المضادة وتتبدد في فضاء الكون.

وانفجرت ذرة اليورانيوم.

الخروج

كان يزدرد الطعام كأنّه يزدرد كرات من العجين يلقى بها فى جوفه دون تلذذ وكان الهواء راكدا ثقيلا.. وكل شيء راكد ثقيل.. وصفحة النهار تبدو كليل بلا نجوم.. ولم يكن يدرى كم من الوقت قد مضى عليه وهو جالس فى كرسيه فى مقهى الروف بأعلى البرج.. ربما بضع ساعات وهو يجلس نفس الجلسة لم يحرك أصبعا.. وربما بنفس النظرة الذاهلة المحملقة فى الهواء دون أن يختلج له جفن وكأنما تسمرت نفسه وبات عقله مصلوبا على فكرة واحدة لا يبرحها.. أن يتخلص من حياته..

مريض بلا شفاء يتنقل من طبيب إلى طبيب ومن دواء إلى دواء ومن مخدر إلى مخدر ومن أمل إلى أمل.. ثم تذوى الآمال ثم يكتشف أنه لم يبق له إلا الصبر.

وفى البيت وحده وفراش بارد ومائدة عليها عشرات العقاقير وخطابات لا يجف حبرها تجرى سطورها اللاهثة بنداء واحد لا يهدأ:

سوزان.. سوزان..

عودى.. أحبك.. لا أستطيع أن أحيا بدونك.. ولا أن أموت بدونك.

حياتى ليل بدون ضوء عينيك.

ودائما ترسل الخطابات وتسافر عبر البحـر.. ولا يـأتى لهـا رد ولا يسمع لها صدى.

الزوجة الأوروبية عادت إلى بلادها بقلب ينزف وتركت وراءها قلبا آخر ينزف.

وفى ذلك الصمت الشبيه بالصراخ يعيش..

وفى تلك الغرفة المترفة الوثيرة ذات الديكورات الغـالية يتقلـب.. وكأنما يتقلب على صحراء موحشة تسرح فيها الافاعى.. ثـم ينفـد الصبر.. وتنقطع حبال الانتظار.

ولا تبقى فى ذهنه إلا فكرة واحدة.. أن يتخلص من حياته.

تأتيه الفكرة فى البداية زائرة ثم تصبح طوافة ثم تلح عليه ثم تقيم فى رأسه ثم تتحول إلى حصار ثم تغدو كابوسا قهريا يحتويه ويجثـم عليه ويخنقه رويدا رويدا.

ويتحرك أخيرا.. فينظر إلى ساعته.

لقد مضت أربع ساعات وهو متجمد فى كرسيه كتمثال، وشـىء فى داخله ينخر فى بنيانه ويأكل جوفه.. وبنظرة سريعة عبر الشرفة يـطل على الناس الذين يبدون كالنمل الصغير أسفل البرج.. وتتسمر عيناه على الهوة التى تفغر فاها تحت قدميه.

ثم فى لحظة يرمى بنفسه من شاهق.

ويتجمع الناس أسفل البرج.. وهم يحكون فى ذهول..

هناك رجل رمى بنفسه من أعلى البرج فسقط على كتفى عامل فقتله لساعته.. أما هو فلم يصب بخدش..

وحينما أفاق الرجل من صدمته وأدرك ما فعل انكب على شفرة حديد صدئة التقطها من الطريق وقطع شرايينه.

وحملوه إلى المستشفى وهو ينزف وأسعفوه.

وحينما فتح عينيه واكتشف أنه لم يمت بعد.. ابتلع زجاجة الأقراص المنومة كلها فى غفلة من الممرضة..

ولكنهم غسلوا معدته وأعطوه شيئا وأنقذوه.

وفتح عينيه من جديد ليجد أنه لم يمت بعد ثلاث محاولات قاتلة.. قتل فيها رجلا آخر ولكنه لم يمت.. وسقط مغشيا عليه..

وفى النوم وبين لحظات الخدر وفيما يشبه الرؤيا شاهد الرجل نورا وسمع صوتا يقول له:

- ماذا فعلت بنفسك؟

- أردت أن أقتل نفسى لأستريح.

- ومن أين لك العلم بأنك سوف تستريح. أعلمت بما ينتظرك بعد الموت؟

- إنه على أى حال أفضل من حالى فى الدنيا.

ـ هذا ظنك.. ولا يقتل الناس أنفسهم بالظن.

ـ وماذا كنت أستطيع أن أفعل.. وماذا بقى لى؟

ـ أن تصبر وتنتظر أمرنا..

– صبرت.

– تصبر يوما آخر إلى غد.

– سيكون غدا مشئوما مثل سالفه.

– كيف علمت.. هل أنت الذى خلقت الأيام.. هل أنـت الـذى خلقت نفسك؟

– لا.

– فكيف تحكم على ما لا تعلم وكيف تتصرف فيما لا تملك؟

– هذا عمرى وقد ضقت به.

– أتعلم ماذا نخفى لك غدا؟

– لا.

– إذن فهو ليس عمرك.

– لا أريد أن أعيش.. خلوا بينى وبيـن المـوت.. دعـونى.. ارحمونى.

– لو تركناك فما رحمناك.. إنما نحول بينك وبين رغبتك رحمـة منا وفضلا ولو تخلينا عنك لهلكت.

- يا مرحبا بالهلاك.. ما أريد إلا الهلاك.. يا أهلا بالهلاك.

- لن يكون الهلاك رقدة مطمئنة تحت التراب كما تتصور.

- أريد أن أخرج مما أنا فيه وكفى.

- ولو إلى النار؟

- وهل هناك نار غير هذه؟

- أتصورت أنه لا وجود إلا لما يقع تحت حسك من جنة ونار.. أظننت أنه لا جنة ولا نار إلا نعيمكم وعذابكم.. أظننتنا فقراء لا يتسع ملكنا إلا لهذا العالم.. أتصورت أنه ليس عندنا لك إلا هذه الشقة فى المعادى.. وليس عند رب العالمين غير هذه الكرة الأرضية المعلقة كذرة غبار فى الفضاء.. بئس ما خيل لك بصرك الضرير عن فقرنا.

- ضقت ذرعا مما أنا فيه.. انسدت أمامى المسالك.. انطبقت السماء على الأرض.. اختنقت.. أريد الخروج..أريد الخروج.

- ألا تصبر لحظات أخرى.. أترفض عطيتنا فى الغد قبل أن تراها؟

- رأيت منها ما يكفينى.

- هذا رفض لنا ويأس منا واتهام لحكمتنا وسوء ظن بتدبيرنا وانتقاص لملكنا.. بئس ما قررت لنفسك.. اذهب .. رفضناك كما رفضتنا وحرمناك ما حرمت نفسك.. خلوا بينه وبين الموت.. دعوه.

وفى تلك الليلة شنق الرجل نفسه بملاءة الفراش.. ومات فى هــذه المحاولة الرابعة.. وفشلت كل الإسعافات فى إنقاذه.

وجاء الغد..

فطلعت صفحات الجرائد الأولى بخبر مثير عن اكتشــاف عــلاج جديد حاسم للمرض الذى كان يشكو منه.

وجاءت سوزان تدق بابه فى شوق وفى يدها بضع زجاجات من هذا الترياق الجديد وقلبها يطفح بالحب والأمل.

ولكنه كان قد ذهب.

لم ينتظر العطية.

ظلم المعطى والعطية وظلم نفسه وظلم الغد الذى لم يره واتهــم الرحيم فى رحمته وأنكر على المدبر تدبيره.

وخرج..

إلى حيث لا رحمة.. ولا عودة..

مخالى

على ناصية ثلاثة شوارع، وفى ميدان كبير معروف تقع بقالة كبيرة يعرفها رواد الليل بأنها آخر بقعة مضيئة تنطفئ فى القاهرة ويمرون عليها فى ليالى الصفاء ليمضوا فيها دقائق يخرجون بعدها وتحت إبطهم لفات من الورق مثقلة بالسجق، واللحم البارد والزجاجات الطويلة الحمراء.. تلك هى بقالة مخالى التى تنفرد بين مئات البقالات التى تمتد على طول الميدان بأنها تكاد تحتوى على كل شىء.. فأنت تجد فيها إلى جانب الزيتون والجبن والشاى.. الليف والمغات والويسكى.. والأسبرين وورق اليانصيب حتى الدجاج المذبوح.. هذا عدا واجهة أنيقة عند الباب تتلألأ فيها زجاجات من كل الجنسيات من الزبيب القبرصى إلى الشمبانيا الفرنسية المعتقة..

ولعل أغرب ما تضم هذه البقالة بين بضائعها هو مخالى بابا ينى صاحبها ومديرها.. فهذا الإنسان القصير البطين ذو الرأس المكور بضاعة فريدة.. بضاعة خليط من كل الجنسيات.. فأنت لا تدرى هل هو شامى أو أرمنى أو يونانى أو مالطى أو إيرانى.. وكل ما تعرفه

أنه أمامك مصرى.. وأمام ميخاليدس يونانى وأمام مولستانا إيـرانى وأمام ينى أرمنى.. وهو يدير كل هذه السفارات العالمية المتجمعة فى شخصيته الفذة بلسان يتحدث بأكثر من خمس لغـات فى فصـاحة وطلاقة.. فيخيل إليك أنه درس فى جامعات الدنيا، وهو لـم يـدرس شيئا ولا يعرف من هذه اللغات إلا الـكلمات القليلـة التـى تخص المكرونة والسردين وتتناول البيـع والشراء والتعـامل والمجـاملات الرقيقة.

وشىء آخر يخلق بينه وبين البضاعة التى يبيعها صـلة وثيقـة.. رأسه المكور الأصلع الذى يبدو فى لـون الجبـن الفلمنـك وعينـاه الخضراوان اللتان تشبهان زيتونتين غضتين، وأنفه الـطويل الـذى يشبه السجق، وجبهته التى ذهب لونها مـن البـرص.. فـأصبحت كشريحة لحم الخنزير، وفمه العريض الذى استطال من كثرة الابتسام المصطنع للزبائن فأصبح كفم الضفدعة وجسمه السـمين القصـير الذى يشبه برميل الخل القبرصى.

ولكن مخالى بالرغم من هذا الشبه الوثيق بينه وبيـن بضـاعته إنسان مثلى ومثلك. وهو فوق هذا جنتلمان، رقيق الحـاشية دائـم الابتسام يبتسم لكل من يلقاه طالما كان من زبائنه، ويقـدم كرسـيا لأصدقائه الذين يقرضهم بالربا آخر الشـهر، ويمتص إيـراداتهم فى أوله.. وإذا كنت ممن يشترون حوائجهم ومررت عليه.. فإنه لا يدعك تمر فى سلام، بل يستقبلك بزوبعة من التحيات والبسمات.. ثم يميـل على أذنك ويهمس بأن عنده اليوم نوعا من الجبن أعظم من شسـتر وفلمنك وهذ كل وأنه ما عليك إلا أن تسير بضع خطوات وترفع هـذا

الغطاء.. وتذوق قطعة من هذا الشهد الأبيض حتى تؤمن بأن الحياة جديرة حقا بأن تحياها، يقول هذا ويجرك من يـدك ويـزيح غـطاء البرميل الصغير ويقطع بطرف سكينه قطعة صغيرة مربعة من الجبن يقدمها إلى فمك، ثم يفتح فمه على آخره وأنـت تتـذوقها بلسـانك ويهتف:

– فين دى من جبنة امبارح.. السما من الأرض يا حبيبى أنـا جايبه مخصوص علشانك..

فلا يسعك حتى لا تفضح غباءك وجهلك فى التذوق إلا أن تقـول: صحيح.. صحيح يا خواجا السما من الأرض. فيفرك يديه ويتنـاول ورقة كبيرة وهو يقول: كم أقة.. أقتين.. ثـلاثة.. ويقـطع بسـكينه ولا ينتظر ترددك، وهكذا تجد نفسك بين طرفة عيـن وانتبـاهتها فى الطريق وفى يدك أقتان من نفس الجبن الـذى اشـتريته فى اليـوم السابق.. وأنت لا تدرى كيف مثل عليك مخالى هذه الكذبة الـكبيرة ونشلك هذا النشل الرشيق.. وهذه صناعة يتقنها مخالى إلى أبعـد الحدود.. صناعة تفريغ جيوب الناس فى جيوبه بالحلال.

وفلسفة مخالى فى الحياة بسيطة.. ومستقيمة.. فهو يقـول إن كل شىء فى الدنيا يشترى بالمال.. ليس فقط المكرونة والسرديـن. بـل أيضا المسكن والملبس والزوجة.. والأولاد والصحة والراحة.. حتـى الوقت له فى هذه الدنيا ثمن.. فإذا أردت أن تعيش وتستكمل لحياتك أسبابها.. فابحث عن المال، وهو منطق سليم لا عوج فيه يصب حياة صاحبه فى قالب سهل مستقيم لا عوج فيه أيضا.

وقد ورث مخالى هذه الفلسفة فى دمه من أجداده العظام من أسرة بابا ينى العريقة..

وأول أجداد هذه الأسرة.. بابا ينى الكبير.. جاء إلى مصر من اليونان فى ثورة الموره.. هكذا يقول مخالى.. هرب وتسلل خفية إلى سفينة تشرع قلاعها إلى مصر، ودفع ثمن رحلته خدمات للبحارة.. خدمات من كل نوع حتى مسح الأحذية.. وحينما وضع قدمه على أرض مصر لم يكن يملك عدا ذراعيه مليما واحدا.. ولكنهما كانتا ثروة كافية.. سرعان ما بادر إلى استغلالها.. فهو يعمل جرسونا وبائع يانصيب وعاملا فى مصنع للكبريت وموردا فى مصنع للأزرار وهو فى أثناء ذلك يضع القرش على القرش والمليم على المليم ويختزن فى رأسه تجارب الحياة، ثم يفتح فى النهاية مقهى صغيرا يزوده بأسباب الراحة والرفاهية.. فقد أدرك أنه يعيش فى شعب من الكسالى.. المقهى فى حياته ضرورة من الضرورات التى يسعى إليها قبل لقمة الخبز.

ومن أرباح هذا المقهى يشترى أسرة وأولادا وتتكاثر الأسرة من تلقاء ذاتها.. فتلد له أحفادا وأحفادا وإذا بأسرة بابا ينى قد أصبحت فى النهاية كأخطبوط الماء لها عشرات الأذرع ممتدة فى عشرات الأماكن..

فكرياكو فى الإسكندرية يملك كازينو على البحر، وينى فى المنصورة صاحب بار.. وبنايوتى فى دمياط يملك مصنعا للأحذية، وستاورو فى طنطا يملك محلا للساندويتش ومخالى فى القاهرة يملك بقالة كبيرة.. وكلهم سعداء لهم زوجات وأولاد يمدون الأخطبوط بأذرع جديدة..

وليس مخالى هو الوحيد فى أسرته الذى يكد ويكدح فزوجته كاترين تدير مشغلا للتريكو، وابنته ستلا تعمل فى مدرسة ليلية وتقف على طاولة العطور فى محل شملا، وتعطى دروسا فى البيانو وتكتب على الآلة الكاتبة فى أوقات فراغها وتجمع من نشاطها إيرادا شهريا يربو على إيراد وزير.

تقول هذا للحاج أحمد أحد أبناء بلدتك البلهاء.. فيمط شفتيه ويغمغم.. وايه يعنى.. ده راجل درزى حشو جهنم.. وده يتعمله حساب ده.. يقول هذا الحاج أحمد الذى يسكن فى حارة البرابرة فى جحر تعاف سكناه الكلاب مع جيش من الحشرات المستأنسة كالنمل والصراصير والبق والقمل.. ويعول أسرة من المرضى وذوى العاهات تبدأ بأمه المشلولة، وأبيه المريض بالروماتيزم والزلال.. وتنتهى بابنه المريض بالجرب والقراع، وطفله الوليد الذى دفنه منذ أيام، وتحار كيف ترد عليه، وأغلب الظن أنك تسكت وتقول فى نفسك.. حقا إن مخالى لم يخطئ حينما تخصص فى صناعة تفريغ جيوب هؤلاء المغفلين فى جيبه.. وهل يخطئ هذا الذى يرى حمارا فى الطريق فيمتطيه ويهز ساقيه؟

ولكن مالنا اليوم وكل هذا.. إن مخالى اليوم ليس فى الحالة التى يحسد عليها.. إنه ليتمنى لو أصبح الحاج أحمد أو حمار الحاج أحمد.. أو أى شيء غير مخالى التعس العاثر الحظ..

لقد تهدم الصرح الذى بناه كله، وزلزلت الحياة التى شيدها لبنة، لبنة من كده وعرقه.

لا.. لم تمت زوجته بالطاعون ولا أمه بالسرطان بل حدث ما هو أخطر من هذا وأخطر من البراكين والزلازل مجتمعة.. فقد سقط سقف المخزن الذى يحفظ فيه الخمور.. فأريقت ثلاثة براميل من النبيذ وبضع عشرات من زجاجات الويسكى..

ثلاثة براميل من النبيذ.. من دمه.. أريقت على الأرض.. شربها التراب وثمل بها. إنه ليود لو أنه فقد ثلاثة من أصابعه أو ثلاثة من أولاده أو فقد أهله جميعا، ولم يفقد برميلا واحدا..

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى.. يهمس الرجل إلى نفسه وهو يذرع البقالة طولا وعرضا ويتلفت حوله بعينين كعينى الفار.. ثلاثة براميل من النبيذ.. ويعد على أصابعه.. مائتى جنيه. مائتى فرحة وابتسامة.. مائتى خفقة قلب تذهب إلى الأرض.. إلى العدم. ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى ياحفيد بابا ينى الذى كان يمسح الأحذية ويضع المليم على المليم ثم ينظر إلى عماله ويسبهم برطانة مالطية خالصة. ويحتقن وجهه من الغيظ حتى يصبح فى لون صندوق الكوكاكولا الجاثم بالباب..

كيف أعوض هذه الخسارة.. كيف أعوض هذا الدم المراق.. أطلق زوجتى وأصوم وأغش الخمور وأخصم نصف مرتبات العمال. وأرفع الأسعار وأسرق وأحتال.. إن كل هذا أفعله.. كيف أعوض خسارتى.. ويسرع هابطا إلى المخزن ويقف يتأمل ترع الخمر التى تملأ الأرض فى حسرة وهو يصر على أسنانه ويود لو ركع على ركبتيه ورشف هذا الدم الأحمر قطرة قطرة..

إن سقف المخزن قديم متهالك وقد سقط من ثقل العمـال وهـم يروحون ويغدون بأجسادهم السمينة المتخمة بجبنى وزيتـونى.. كان يجب أن أشد إلى هذا السقف عوارض من حديد وأضع البـراميل تحت الأركان، وأحفظ الزجاجات فى جـوالات مـن القش وأتـوقى المفاجآت بسوء الظن.. وأضع فى حسابى أن القدر يتغفلنى ويتآمـر على بلاهتى..

لقد كان أبى يقول: إن الناس واحد من اثنيـن، إمـا لص، أو.. مغفل. والأفضل أن يكون الإنسان لصا.. وكان بمهارته يبيع الجوارب الرخيصة بأضعاف ثمنها بعد أن يزينها بـالأكاذيب.. ومـن هـذه الأكاذيب بنيت بقالتى.. ولو كان معتوها مثلى يفقد ثلاثة براميل من النبيذ كل يوم لمات جوعا.

ثلاثة براميل من النبيذ يامخالى.. ترى ماذا يقول بـابا ينـى إذا علم بهذه النكبة إنه يسب ويلعن عدة أيام متوالية إذا كسرت أمـى زجاجة ماء.. أمى الكليلة البصر.. ويرتفع ضغط دمه.. ويلزم الفراش إذا كسر لوح من الزجاج، أو مصباح كهربائى.. فماذا يقول حينمـا يعلم أن ثلاثة براميل.. يا إلهى..

وخرج مخالى من المخزن إلى البقالة، ثم عاد من البقـالة إلـى المخزن، ثم عاد فترك المخزن وفر إلى البقالة وظل يتردد من مـكان إلى آخر حتى حل ميعاد عودته إلى البيت .. فغادر بقالته وسـار فى الطريق وقد دفن يديه فى جيبه..

وراح يحملق فى وجوه المارة ويهمس.. ليس هناك من يشـاركنى

أحزانى.. كلهم سعداء يهرولون فى الطريق بقلوب خالية ليس فيهم من فقد برميلا من النبيذ.. ليس فيهم أحمق واحد مثلى تهدم على رأسه سقف قديم.

كان يجب أن أصلح السقف وأسد شقوقه وأقتل العناكب التى تعشش فيه وأحتاط للبلاء قبل نزوله وأترك الأخطاء يقع فيها غيرى..

ثلاثة براميل..

ونظر مخالى إلى ترام قد صعد الغوغاء على سطحه، وأخذوا يتصايحون بالهتافات ويلوحون بعصيهم فى الهواء.. فلم يبد عليه أنه أحس بشيء. ما شأنه بالسياسة. إن كل الأحزاب تشرب النبيذ وكل الحكومات تأكل الجبن وترفع الأسعار، وهذا كل ما يعنيه.

وإذا كانت له شكوى يرفعها إلى الحكومة.. فهى هذه المخازن المتداعية التى تهملها مصلحة التنظيم وتتركها تتهدم على براميل النبيذ.

نعم.. ثلاثة براميل من النبيذ تسببت فى تلفها الحكومة.

ونظر فى غيظ إلى عربات الترام، ثم عاد يفكر فى مأساته من جديد..

إن بابا ينى سيموت بالقلب إذا علم بالخبر.. سيصاب بالفالج، وتنفجر شرايين رأسه، وإذا أنكرت الحقيقة.. فإنه سيعرفها، وإذا قلتها بالتدريج.. فلن يسلم من وقعها.. وكاترين وستيلا وميشو وكل هؤلاء سيرموننى بالغفلة والغباء ويقولون إن مخالى الأبله بدد ثروة الأسرة..

مائتا جنيه كان من الممكن أن أضيف بها رفا جديدا إلى بقالتى، أو أضعها فى البنك اليونانى، أو أرصدها للتأمين على الحياة فى شركة أثينا أو أعطيها دوطة لابنتى ستيلا أو أشترى بها عربة لتوريد الطلبات إلى المنازل أو أعطيها رأس مال لميشو ليبدأ بها حياته. أو حتى أنفقها. أنفقها على نفسى.. أما أن تضيع هكذا على الأرض فهذه نكبة.. مائتا جنيه تضيع فى لحظة وأنا أبيع السيجارة فى ربع ساعة لأكسب نصف مليم وأرشى كل فئة من بضاعتى - حتى طابع البريد - بهالة من الابتسامات والنكات والثرثرة المسلية لأكسب زبونا قد يكون مفلسا، واستقطر حياتى بالعنت من جيوب خاوية.

مائتا جنيه.. إنى أشترى بها ذمة رجل شريف ورقبة رجل حر.. إنى أستأجر نصف حياة مخالى ببضعة قروش وعمالى يبيعون ذمتهم للزبائن مجانا.. والزبائن تدفع ثمن هذا الدجل من جيوبها أضعاف ثمن البضاعة.. إن مائتى جنيه تسير أمة..

لقد بدأت حياتى كلها بخمسة جنيهات.. اشتريت عدة ياردات من القماش وسرت أنادى عليها فى دروب بولاق.. أصعد إلى الدور السابع لأبيع مترا من البفتة.. وأهبط إلى البدروم لأبيع منديلا من الدمور فلما أصبح إيرادى ستة جنيهات.. اشتريت حزمة من اليانصيب وشخاشيخ ونظارات.. فلما قفز إيرادى إلى عشرة.. تزوجت وكسبت من الزواج مائة جنيه دوطة.. ففتحت محلا لبيع السجاير وأنجبت ثلاثة أولاد رفعوا رأس مالى إلى مائتى جنيه.. ففتحت بقالة صغيرة كبرت مع الأيام حتى دخلها الويسكى والروم والنبيذ.. ففتحت مخزنا،

ورصيدا فى البنك.. وأمنت على حياتى المشئومة، وكل هذا من خمسة جنيهات.

فماذا كان يحدث لو أنى بدأت بمائتى جنيه.. إنى كنت أصبح كوتسيكا.. كوتسيكا..

ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى..

لو كنت أعلم لشربتها فى جوفى.. وكنت على الأقل فقدت الرشد فلم أحس بهذه الآلام.. أو فقدت الحياة فاسترحت.. إن ثلاثة براميل تسكر ألف رجل.. تفرغ ألف جيب.. تسعد ألف قلب.. تكسب ألف زبون.. ليتنى مت قبل هذا.

وهز رأسه فى حسرة واخترق الميدان الغاص بالعربات، وهو مازال يفكر فى براميله.. ودوى بوق سيارة.. ونفخ شرطى فى صفارته بشدة.. ولكن مخالى لم يسمع شيئا ولم يحس إلا بلطمة معدنية عنيفة توقعه على الأرض.

وحمل المسكين إلى المستشفى وهو يهذى..

ثلاثة براميل.. ثلاثة براميل من النبيذ يا مخالى..

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٣٣٦٠
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 4022 – 2

١ / ٩٣ / ٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.